إلى من قدّ ألا التقيه

رواية

الدكتورة

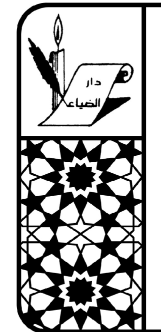
دانة أحمد الجدع



ISBN 978-9957-05-203-4



دار الضياء للنشر والتوزيع



عمان - الأردن

صندوق بريد : ٩٢٥٧٩٨ - الرمز : ١١١٩٠

هاتف وفاكس : ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٧٨٥٠٢

البريد الإلكتروني : info@daraldia.com

الموقع على الإنترنت : www.daraldia.com

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠٠٩/١٠/٤٤٤٤

٨١٣,٩

الجدع ، دانة

إلى من قد لا ألتقيه / دانة أحمد الجدع ._ عمان : دار الضياء ، ٢٠٠٩

(٢٩٦ ص).

ر.إ. (٢٠٠٩/١٠/٤٤٤٤).

الواصفات : // الروايات العربية // العصر الحديث /

■ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

١٤٣٢ هـ | ٢٠١١ م

تصميم الغلاف: أنس أحمد الجدع

رسمة الغلاف: دانة أحمد الجدع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو العلي العظيم

باسم الله الذي لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى

باسم الله غافر الذنب، وقابل التوب

باسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله

الكاتبة

الدكتورة دانة أحمد الجدع، طبيبة، تخرجت من كلية الطب عام ٢٠٠٨، وتعمل في المستشفى الإسلامي في عمّان.

كتبت روايتين: "الخامسة مساء الجمعة" ٢٠٠٨، "أمل في القمر" ٢٠٠٨، وقد بدأت كتابة هذه الرواية في شهر مارس ٢٠٠٩.

أحمد الله الذي وفقني للكتابة، فهو فن فريد من نوعه، وفيه سحر لا يوازيه سحر.

تنوعت رواياتي، فالأولى كانت رواية اجتماعية من ألف وستمئة صفحة، أما الثانية فقد كانت رواية يسودها الغموض من مئة وخمسين صفحة، وهذه الرواية تعرض صوراً من حياة غير المسلمين، وتظهر بعضاً من معتقداتهم وآرائهم.

ولمزيد من المعلومات، يمكنكم زيارة الموقع الشخصي للكاتبة:

www.dr-danajada.com

وللتواصل يمكنكم أن تبعثوا الرسائل على البريد الالكتروني:

Danajada84@yahoo.com

وشكراً جزيلاً على الدعم والمتابعة.

الدكتورة

دانة أحمد الجدع



الإهـداء

أهدي روايتي الثالثة إلى والديّ العزيـزين، اللـذين تعبـا كثيراً لتـهييئ الأجواء المناسبة للكتابة والدراسة وكل إبداع.

ثم أهدي الرواية أيضاً إلى صديقتي وأختي المهندسة ديانا العبادي، مع تمنياتي لها بكل توفيق ونجاح.

كما أقدم الروايـة إلى كـل إنـسان يجتـهـد في البحـث عـن الحقيقة.

التقديم

استيقظت على فراش لم يكن فراشي ... في غرفة لم تكن غرفتي... في منزل لم يكن منزلي !

سرت في طريق بمدينة لم تكن مدينتي ... في دولة لم تكن دولتي!

كل الأشياء غريبة ... كل الوجوه جديدة ! هل تراهم يعلمون أنني غريب ؟

كل العيون تتجه صوبي ! هل هو وهم أتصوره أم أنني مريب ؟

إلى أين أذهب ؟

وماذا أفعل ؟

الجزء الأول

الفصل الأول

كنت أكيداً من حقيقة وحيدة، هي الألم في صدري، يتزايد مع أنفاسي فأحبسها، ليس لأني لا أذكر السبب، ولكنه كان ما قادني إلى هنا، كان السبب في التغيير الكبير الذي اضطررت للخضوع له.

ربما أكون محظوظاً في نظر الكثيرين، ربما فعلاً أكون محظوظاً بفرصة جديدة للحياة، ولكن... مالي وحياة لا أعرف ماذا أفعل بها؟

ربما هو الوقت... أحتاج لبعض الوقت... الوقت...

ﮔﮕ

الفصل الثاني

استيقظت أسمع طرقاً على الباب، فتحت عيني فإذا بها قد دخلت تقول "صباح الخير، هل نمت جيداً؟"

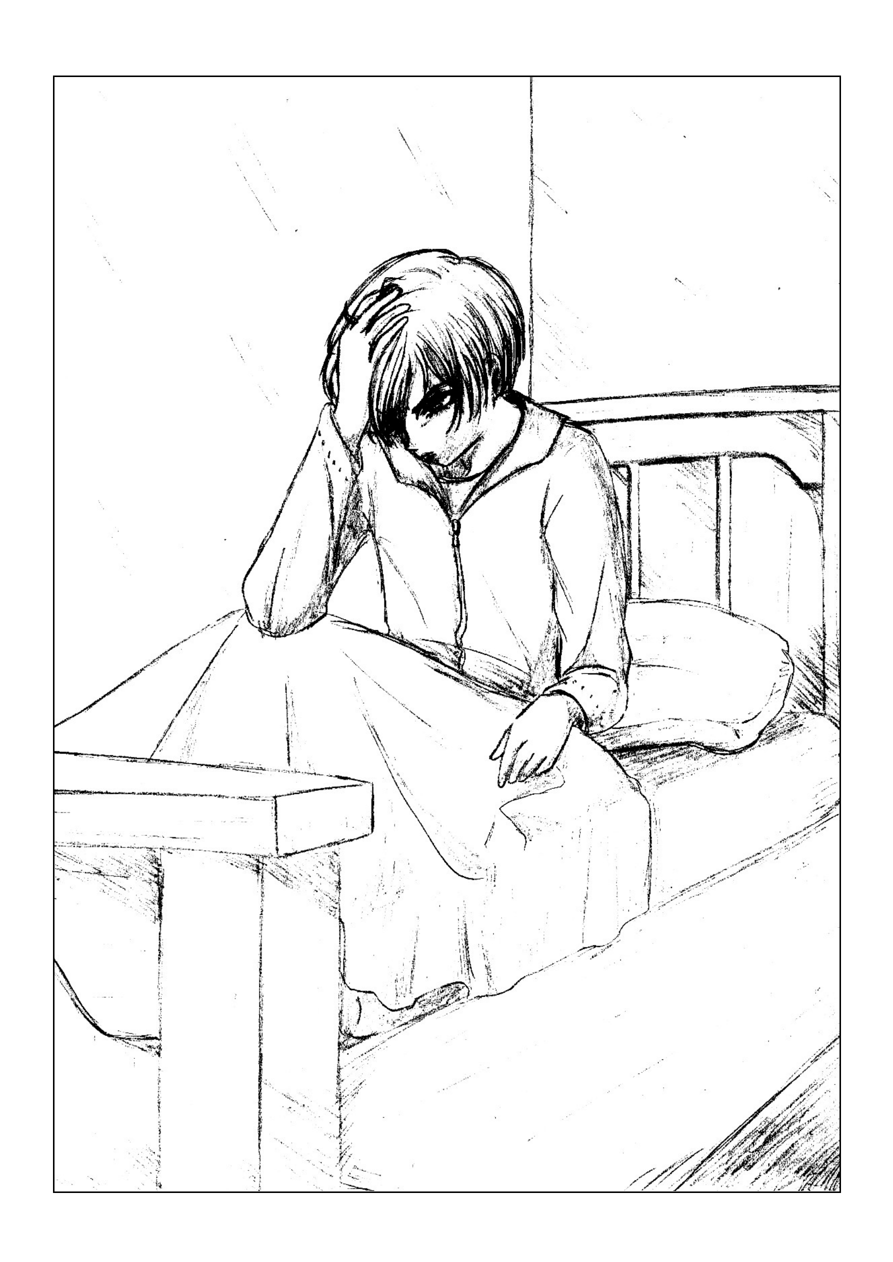
إنها في الستين، هل هي بعمر أمي أم جدتي؟ ترتدي ثياباً بسيطة، ربما كانت تنظف المطبخ بها. تربط شعرها وكأنها لم تستغرق في ذلك ثوان، تبدو التجاعيد واضحة على وجهها الذي لا يبدو أن مسحوقاً قد لامسه منذ سنوات! مع كل ذلك كان صوتها رقيقاً، ناعماً، وهادئاً.

رفعت رأسي أحاول ألا أنظر تجاهها، وبما أنني لم أنطق بأي كلمة قررت أن تتابع "الفطار جاهز"

مسحتُ على شعري أحاول أن أشغل نفسي بأي شيء سوى النظر إليها، وضعت قدمي على الأرض ما أزال أجلس على الفراش، هل تنوي أن تظل في الغرفة مدة طويلة؟

يبدو أنها شعرت بما أفكر فيه، فقالت "نحن ننتظرك في المطبخ" وأغلقت الباب وراءها.

المطبخ! وتسمي الغرفة المنزوية ببضعة خزائن وأكواب مطبخاً!



وقفت أمام المرآة، لم تكن الغرفة تتجاوز الثلاثة أمتار، فيها سرير ومكتب وخزانة، في الخزانة بعض الثياب التي لم أرتدها مرة واحدة، ولا أظن أنني سأفعل.

كان علي أن أخرج من الغرفة إلى الممر حتى أغسل وجهي في حمام لا أستطيع أن أخطو فيه أكثر من خطوتين.

في نهاية الممر غرفة مغلقة، وفي بدايته صالة تحوي ما يسميانه مطبخاً وغرفة الجلوس! كلاهما قد لا يتسعان لخمسة أشخاص.

كانا جالسين حول الطاولة، والطعام أمامهما، أطباق صغيرة فيها بعض المعجنات التي أعلم أنها قد عجنتها بنفسها البارحة، والقليل من القهوة.

نظر إلي زوجها، أظن أنه في أواخر السبعين، نحيل وما يزال الشعر الأبيض على رأسه كثيفاً. يرتدي قميصاً منزلياً، أظن أنه ينوي الخروج به إلى العمل.

العمل! لا أدري ماذا يعمل، بل لم أفكر بذلك من قبل، إنه يخرج صباحاً، ويعود في وقت الظهيرة. لا يبدو أن العمل يدر عليه الكثير من النقود.

اقتربت من الطاولة التي كان يخيم عليها الأسى، أليس هذا هو ما أشعر به أيضاً، فلماذا لا أريد الجلوس؟ لماذا لا أريد الاقتراب؟ لماذا اقتربت تجاه الباب وخرجت دون أن أنطق بأية كلمة؟

الفصل الثالث

من أنا؟... أدعى آدم، سأبلغ الثالثة والعشرين من العمر بعد يومين، أرتاد أفضل جامعة في المنطقة، أدرس فيها الأدب العالمي، الذي حصلت فيه على الكثير من شهادات التقدير.

صاحب حزام أسود في الكاراتيه، والحاصل على كأس نوادي القارات لثلاث سنوات متتالية.

أحد قراصنة الحاسوب، ولم يلحظ أحدهم ذلك إلا مؤخراً.

والآن لست أملك في جيبي أكثر مما يمكنني من شراء وجبة غداء في مطعم ثلاثة نجوم!

جلست في منتزه صغير إلى جانب الطريق، هناك بائع على الزاوية، يبدو أنه يملك بعض المثلجات.

جلست أتناول المثلجات، ليس من الممتع أن تحسب النقود المتبقية وتفكر بما ستفعله بها إلى آخر اليوم، بل هل ستكفي ذلك الوقت؟

من المفترض أن أكون في الجامعة، ولكنني تغيبت، إنه اليوم السابع على التوالي، هل فُصلت يا ترى؟

الفصل الرابع

كنت قد دخلت في قيلولة خفيفة عندما شعرت بيد قد طالت جيبي، فتحت عيني فإذا بثلاثة شبان كانوا قد سحبوا ما تبقى لي من النقود.

استوقفتهم قائلاً "أعيدوا النقود" كانت لهجتي بليدة، بل لم أكن أصدق أنني أفعل ذلك من أجل مبلغ خسيس لا يستحق العناء!

ضحك الشبان وفي عيونهم رغبة شديدة في العراك، ولكنهم اختاروا المنافس الخطأ، فقد اقتربوا، والتفوا حولي، وحاولوا إخافتي ببعض الكلمات مثل "من تظن نفسك؟" "هل كنت تنوي شرب الحليب بهذه النقود؟" "يبدو أنك لا تصلح لشيء"...

ووقعوا في المشكلة، وانقلبت الدائرة عليهم عندما اكتشفوا من حركات بسيطة أنني ضليع في الكاراتيه، وأنهم ليسوا سوى شباب ضائع، يحاول إثارة المشاكل.

تابعت العراك بكل براعة، ونسيت الألم في صدري إلى أن اضطررت لرفع يدي اليمنى عالياً أدفع بها أحدهم، فشعرت بألم شديد، جعلني أتراجع قليلاً، ولكن القتال كان كافياً لإخافتهم في هذه المرحلة، فقاموا برمي النقود على الأرض وغادروا المكان.

نظرت إلى نقودي وقد اتسخت بالغبار، انحنيت آسفاً لألتقطها، لا أصدق أنني أنحني لهذا القدر من المال!

عدت إلى المنزل، ولم أكن قد أنفقت من نقودي المتبقية شيئاً، بقيت بلا غداء أو عشاء، وعدت في ساعة متأخرة بعد التسكع هنا وهناك، ثم دخلت إلى غرفتي متجاهلاً الأسئلة التي وُجهت نحوي "أين كنت في هذا الوقت المتأخر؟" "هل تناولت طعاماً؟"

الفصل الخامس

استيقظت في صباح اليوم التالي، هذه المـرة لم يـوقظني أحـدهم، كان الوقت متأخراً!

نـهضت من الفراش، وكنت ما أزال أرتدي ذات الثياب، غـسلت وجهي، واتجهت صوب الباب.

لقد كان في المطـبخ، يحتـسي القهـوة ويقـرأ الجريـدة، لم ينطـق أحـدنا بكلمـة إلى أن أمـسكت مقـبض البـاب لأفتحـه فوجدتـه مقفـلاً! والمفتاح لم يكن على القفل.

التفتّ إليه، وبدون مقدمات ولا تسليمات قلت "أين المفتاح؟"

أنزل الجريدة من بين يديه، واحتسى آخـر مـا تبقـى في فنجـان القهوة، ثم نظر إلي وقال "أنت لا تذهب إلى الجامعة"

كنت أعلم أنهم سيعلمون ذلك عاجلاً أم آجلاً، ولكـنني لا أخفـي أن قلبي قد رف لحظتها، وقلت منزعجاً "هل تقومان بمراقبتي؟"

وضع ذراعه على الطاولة وقاطع أصابع يديه أمـام وجهــه يحـدق بي، ثم قال "لقد اتصل أحد المحاضرين، يسأل إذا ما كنت انتقلـت إلى الجامعة أم لا"

ارتكزت على باب المنزل، ولم أعد أنظر إليه، أشـحت بـوجهي

إلى زاوية على الأرض، لا أرغب في الحديث في أي شيء، ولكنه حرك الكرسي الذي كان إلى جانبه وقال "اجلس"

لم أتحرك، كنت أتمنى أن يكون هناك شيء أمامي لأقوم بركله لأكسره، ولكنه ظل صامتاً، يحدق بي بنظرات المتهم! لم أعد أحتمل ذلك، صرخت قائلاً "لماذا رضيتم ببقائي هنا إذا لم تكونوا ترغبون بذلك؟"

قال "لم يكن ذلك خيارنا"

ابتسمت بسخرية، ما أزال أحدق في الأرض، فقال "وليست لدي النية في أن أندم على ذلك"

هنا نظرت إليه، إنه يبدو كئيباً جداً، لست أدري إذا كان ذلك يرهقني أكثر، بماذا يفكر؟

ثم حضرت، دخلت من الممر تقول "هوّن عليه، الأمر ليس سهلاً"

فقال "لقد هوّنت عليه الأسبوع كاملاً، فماذا فعل؟"

قالت "حتى وإن لم يفعل شيئاً، فلا داعي لمواجهته هكذا"

"أنت تفسدين الأمر بأسلوبك هذا"

"أفسده! لماذا لست سعيداً به؟"

"لا نريد الحديث في هذا الأمر"

"وماذا نفعل الآن إذن؟"

كان علي الاستماع إلى حديث لا يعنيني! بل بدأ صوتهما يعلو بالشجار! أين أنا؟ ولماذا اختير لي أن أكون هنا؟ ألم يجدوا غير هذه العائلة السيئة، أم أن هذا عقابي على ما فعلت؟

هذا مزعج، سرت لأدخل غرفتي لأغلق الباب على نفسي وأنهي الأمر، ولكنه نهض عندما تحركت، وصرخ قائلاً "أنا لم أنه الحديث معك!"

توقفت، نظرت وهلة في عيونه فتذكرت عيون والدي، غاضبتان غائرتان! إنهما يحملان شراً لا أطيقه! لم أعد أستطيع الحراك،ربما بدأت أرتجف! هذه العيون... لا أطيقها...

الفصل السادس

فتحت عيني، فإذا بـي في المشفى! وهنـاك مغـذّ في يـدي. يبـدو أنني قد فقدت وعيي.

مـاذا جـرى؟ لـست أذكـر شـيئاً! صـراخ... شـجار... دمـوع... وعيون! اختلطت كلها في ذاكرتي.

إنها تجلس إلى جانبي، في عينيها أسىً كبير، نظـرت إلـي وقـد كنت أنظر إليها، فقالت "هل أنت بخير؟"

سألتُها: كم هي الساعة، فأجابت "التاسعة والربع"

سألتُها: في أي يوم نحن؟ تعجبت لسؤالي ولكنهـا قالـت مؤكـدة "إنه الأحد، الثاني والعشرون من الشهر الثانـي"

"عام؟"

"آدم! إنه العام ألفان وتسعة! لم تفقد وعيك أكثر من ربع ساعة!"

أغمضت عيني، وأخـذت نفـساً عميقـاً، عنـدها دخلـت الممرضـة تطمئن على صحتي، وتقيس لي الضغط، لست أدري كم مرة فعلت ذلك قبل الآن.

قالت "إن ضغطك جيد، يبدو أن أمورك مطمئنة تماماً، سيحـضر الطبيب ليطمئن عليك حالاً"

ولكنني قلت لها "كلا، لا أريد رؤية الطبيب، أخبريه أنني بخير"

تعجبت الممرضة من طلبي هذا "الجميع ينتظر بالعادة نصيحة الطبيب بشكل مباشر، لماذا لا تريد أن تراه؟"

لم أنطق بأية كلمة، بدأت أنظر في الغرفة حولي، رفعت رأسي عن الفراش حيث بات وضعي مستقراً، ونظرت إلى النافذة، في هذه اللحظة دخل الطبيب.

هي لمحة التي نظرتُ إليه فيها، ومن حينها بقيت عيني تنظران إلى الفراش حيث أضم يدي إلى بعضهما بارتباك.

ألقى التحية واقترب مني، ولم أرفع عيني، جلس على الفراش إلى جانبي، حيث يظن أن في جلسته هذه يكون قد اقترب مني، ولكنني قلت فوراً "لا تجلس"

تصرف الطبيب بحكمة ورزانة، ونهض عن الفراش دون تعليق، ثم قال "أرى أنك على ما يرام"

لم أنطق بأي كلمة، بل لم أنظر إليه على الإطلاق، فتنهد الطبيب وقال "كل ما أحتاجه بعض الأسئلة البسيطة، التي لم يستطيعا الإجابة عنها"

بقيت صامتاً، فقال "حسب ما فهمت فأنت تقيم عندهما منذ أسبوع، وهما ليسا والديك، ولا يعرفان عنك الكثير"

نظر إليها فطأطأت رأسها، وبما أنني لم أجب طلب إليها الانتظار في الخارج.

بعد أن خرجت نظر إلي قائلاً "هل سبق أن فقدت وعيك هكذا من قبل؟"

"لا" كان كل ما قلت.

"هل تتناول علاجاً ما؟"

"لا"

"هل سبق أن شخّصك أحد بمرض معين؟"

"لا"

"لا أمراض مزمنة في القلب؟"

"لا"

"ألم يسبق لك أن تعرضت لنوبة من التشنجات؟"

"كلا"

"إذن فأنت معافى تماماً"

معافى!

"ستكون على ما يرام"

ما يرام! من السهل أن يقول ذلك.

أنهى الطبيب كلامه وخرج من الباب، هناك التقى بهما ليتحدث إليهما.

سألَتْه فوراً "هل هناك أي مكروه؟"

أجابها مطمئناً "أبداً، إنه بأحسن حال، ولكنه مكتئب، وأظنه في حالة شديدة من الاكتئاب، عليكما أن تحذرا"

سأل "نحذر من ماذا؟"

فقال الطبيب "من أن يؤذي نفسه"

في هذه اللحظة دخلت الممرضة علي وقد كنت أنزع المغذي من يدي، هرعت إلي قلقة لتنزعه بنفسها قائلة "من الخطر أن تفعل ذلك! دعني أنزعها بنفسي"

الفصل السابع

عدنا إلى المنزل ولم يتحدث أحدنا إلى الآخر، بل لم أنظر إليهما على الإطلاق، أظن أنهما كانا يريدان الحديث ولكنني لم أسمح لهما بفرصة.

ما يزال الوقت مبكراً، لا أريد أن أظل في الغرفة طول الوقت، أريد أن أخرج.

يبدو أنه قد توقع ذلك، فقد مد إلي نقوداً وقال "اذهب واشترِ بها ما تشاء"

إنها بقدر نقود البارحة، لا تكفي لأكثر من غداء! هل يظن أنه يؤدي إلي خدمة ما؟

اضطررت لأخذ النقود لأخرج من المنزل، ويبدو أنها كانت قلقة جداً من أن أخرج وحدي، ولكنه تركني أفعل ما أشاء.

الفصل الثامن

عدت إلى الطرقات، أسير هنا وهناك، بت أعرف معظم أنحاء المدينة، بل ربما لم أته عن دهليز من دهاليزها.

فرأيته للمرة الأولى، إنه يقاربني العمر، يستلقي على رمال الشاطئ، يرتدي قبعة شبابية، وهناك لاصق طبي على أنفه!

اقترب منه بعض الشباب وقد ظنوا أنه نائم، تذكرت ما جرى معي البارحة، وكيف كانوا يسرقونني، فاقتربت لأمنع حصول ذلك.

ولكن يبدو أنه لم يكن بحاجة إلى المساعدة، فقد أمسك بأولهم فور اقترابه، ولقنه درساً عنيفاً خاف منه الباقون.

هرب الجميع وعاد للاستلقاء من جديد، يبدو أنه قوي رغم أن قتاله لم يكن يحمل طابعاً معيناً، أظن أنه ما يسمونه قتال الشوارع.



اقتربت منه، ووقفت قريباً من قدميـه، فنظـر إلـي وقـال "مـاذا تريد؟"

لم يكن صوته غليظاً، ولم يكن مظهره شرساً، إنه فقط لا مبـالٍ، يريد أن يفعل ما يحلو له ليس إلا.

قلت "لقد تعرضوا لي البارحة أيضاً، جميـل أنهـم قـد فـشلوا في السرقة مرتين متتاليتين"

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال "سرقة! كلمة قاسية، لقـد حـضروا لاسترداد نقودهم"

تعجبت عندما سمعت "نقودهم!"

وقف على قدميه ونفض الغبار عن ثيابه ثم قـال "لقـد اقترضـت منهم نقوداً البارحة، وهم هنا لاستردادها فحسب"

فكرت ملياً بما أسمع، اقترض نقوداً، قدموا لأخذها منه عنـوة، منعهم من أخذها، ما تزال نقودهم معه! قلت "هل بدأتهم بالسرقة؟"

"تُ، تُ، قلت لك أنني اقترضتها منهم فحسب"

"ومتى تنوي إعادتها؟"

"عندما أصبح غنياً" واستدار ساخراً.

لم أستطع تحمل ما سمعت، أسرعت إليه وأمسكت به بقوة قائلاً "أنت لا تعرف ماذا يعني أن يسرق أحدهم منك شيئاً"

ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، لم تكن كسابقاتها، إنها ابتسامة تغطي ألماً خلفها، وقال "صدقني، أنا أعلم، بل أعلم الأسى عندما توقن أنك غير قادر على استعادتها، لأن من أخذها منك أكبر وأعظم"

تركته، لم يعد لدي ما أقول بعد ما رأيت وسمعت، أخفى وجهه عني وسار مبتعداً بخطوات يائسة.

من يكون؟

ﷻ

الفصل التاسع

عدت إلى المنزل بوجه مختلف، وتحققت من ذلك عندما دخلت، فقد كانت تتجادل معه عن الأسلوب الجديد الذي يريدان اتباعه في التعامل معي، دخلت وهما على حالهما، سكتا ونظرا إلي، فصنعَتْ ابتسامة عريضة تقول "أهلاً بعودتك"

قلت وأنا أنظر إليهما "شكراً"

رغم أنني لم أقل أكثر من تلك الكلمة واتجهت إلى غرفتي فوراً، إلا أنني شاهدت معالم الحيرة على وجهيهما! لقد تغيرتُ، شيء فيّ قد تغير.

جلستُ في غرفتي، تتقاذفني الأفكار هنا وهناك، بت لا أدري ماذا ينتابني! في مثل هذه الأحوال كنت دائماً أفضل أن أمسك بالقلم وأكتب على الورقة كل ما يجول في خاطري، وأنظر إليها بعد أن أهدأ قليلاً، شيء من هذا قد حدث ولكن هذه المرة بأسلوب مختلف.

بحثت عن ورقة وقلم، وجلست على الفراش أكتب، فكان أول ما كتبت هذه الرسالة:

إلى من قد لا ألتقيه بعد اليوم أبداً،

لقد حركتَ فيّ مشاعر غريبة، بل ربما كنتَ تغييراً جذرياً في حياتي!

لطالما ظننتُ أنني فقدتُ ما لا يعوض، ولكن نظرتـك وابتـسامتك العميقتين جعلتاني أفكر، ماذا فقدتَ؟

وتابعت الكتابة إلى أن غفوت...

ഇ൫

الفصل العاشر

في صباح اليوم التالي كنت قد استيقظتُ والأوراق إلى جانبي، والقلم ما يزال في يدي، أظن أنني قد حلمت به، ولكنني لم أستطع تذكر الحلم، نظرت إلى الأوراق وبدأت أقرأ ما كتبت، فدخل في أعماقي أكثر، وقررت أخيراً أن أحظى بالفرصة التي أُعطيت لي، التغيير.

غسلتُ وجهي، واتجهت إلى طاولة المطبخ، كان الوقت ما يزال مبكراً، وكانت ماتزال تحضر مائدة الطعام.

قلتُ "صباح الخير" فانتبهت إلى وجودي في الغرفة، حدقت بي مدة قبل أن تبتسم وتقول "صـ.. صباح الخير!"

لا ألومها على ترددها هذا، فقد تغيرتُ، وعلي أن أغير كل ما كان حولي بتأنٍ.

اقتربتُ منها أنظر ماذا تصنع، إنه حساء من الخضار، قلت "تبدو رائحته شهية"

نظرتْ إلي ثم إلى الطبق وقالت "حـ.. حقاً؟ هل أعجبك؟"

"هل أستطيع أن أتذوق؟"

"بكل تأكيد!"

قدمتْ لي ملعقة، واحتسيتُ من الطبق الرئيسي القليل، وبعد تركيز قلتُ "أظن أنه بحاجة إلى القليل من الملح"

طأطأتْ رأسها قائلة "أنا وزوجي نعاني من ارتفاع في ضغط الدم، لذلك لا نستعمل الملح في طعامنا"

سكتّ، يبدو أنني لا أعرف عنهما شيئاً فعلاً، ولكنها قالت بسرعة "أظن أن هناك ملح متبق لدينا في الخزانة، تستطيع أن تضيف منه إلى طبقك"

وهرعتْ تبحث عن الملح.

نظرتُ في المطبخ حولي، كل الأواني بسيطة، كل الكؤوس، والأطباق، لست أدري هل هما من الطبقة الوسطى أم المتدنية! فتحت الثلاجة، فإذا بها تحوي بعض الفواكه، والبيض، والجبن فقط.

نظرتْ إلي قائلة "هل تبحث عن شيء ما؟"

أغلقتُ الثلاجة قائلاً "ليس شيئاً معيناً"

"إذا ما كنت تريد شيئاً ما لا تتردد في طلبه منا"

قلتُ وأنا ما أزال أمسك بالثلاجة أنظر إلى حيث يدي "هل تعلمين؟ لقد ترعرعت في عائلة فاحشة الغنى"

تغيرت ملامح وجهها، رغم أنني لم أره مباشرة، إلا أنني شعرت به بشدة، بقيتْ صامتة ولم تعلق، بعد لحظات ابتسمتُ إليها وقلت "ظننت أنني سأجد عصيراً ما"

نظرتُ إلى يدها فإذا بها قد وجدت الملح، وضعته على الطاولة وقالت "سأجلب لك عصيراً اليوم، أي نوع تفضل؟"

"أي نوع، لا بأس"

"هل كنت تشرب العصير طازجاً؟"

كان في سؤالها شيء من الحزن والقلق أنها لن تستطيع أن تلبي لي طلباتي، ولكنني قلتُ "عصير تشربانه في العادة"

سكتت فعلمتُ أنها تظن أنني لن أحب العصير الذي يشربانه، حيث أنه رخيص الثمن جداً، الحقيقة أنني لم أستطع مجاملتها أكثر، فأنا لست أدري المدى الذي أستطيع فيه تحمل حياة كهذه.

لطالما كنت أسير في الطريق أحمل معي نقوداً كافية لقضاء ثلاثة أيام في أفخم الفنادق! أسوق أفخم السيارات، أرتاد أرقى النوادي، وأتناول طعام أشهى الطهاة! حياتي كانت مختلفة تماماً، ولست أدري بعد إذا ما كنت أستطيع أن أعيش سعيداً وأنا أفقد الكثير مما كنت أملك.

الفصل الحادي عشر

خرجتُ من المنزل قبل أن يستيقظ زوجها، وقصدت الجامعة.

يا من قد لا ألتقيه بعد أبداً،

لقد تغيرتُ، لحظة كانت كافية لقرار كبير، أريد أن أعود إلى حياة ملؤها الأمل والتفاؤل، ربما لا أستعيد ما فقدت، بل ربما كنت على يقين أنني لن أستعيده أبداً، ولكنني لن أنظر إلى الوراء.

ها أنا ذا في طريقي إلى الجامعة، أدخل ممراتها، أفتح أبوابها، إنها جميلة، والطلاب يملؤونها حيوية.

ممر تلو ممر، غرفة إلى جانب غرفة، تذكرني بأيام سعيدة عشتها، بلحظات تفوُّق فزت بها، لقد كنت سعيداً، وأستطيع أن أكون.

والآن وقد وصلت إلى القاعة التي ستبدأ فيها محاضرتي الأولى، أفتح الباب لأبدأ اليوم الجديد...

توقفت عند الباب، لقد صادفت أول من صادفت، لقد كنتَ أنت!

تجلس على الكرسي باستهتار، ترتدي القبعة رغم أننا داخل الغرفة، وما تزال تضع اللاصق الطبي على أنفك!

لم أكن أتخيل أن أراك مجدداً، بل... لماذا انتابني شعور بخيبة الأمل؟ هل أردتك رمزاً في ذاكرتي فحسب؟ هل أخشى شيئاً ما؟

نعم، حصل ما خشيت، لقد كونـتَ لـي صـورة لم أكـن أريـدها، استـهتار، أذى، لا أباليـة، إزعـاج، اكتـشفت أنـك مكـروه مـن قبـل الجميع! فلماذا تكون رمزي؟ لماذا تؤثر فيّ؟

عدتُ إلى المنزل غير الشخص الذي خـرج منـه، عـدت والأفكـار تجول في خاطري، هذه المرة لن أبعث بها إلى أحد، بل ليس هنـاك مـن يستحقها! بل ليس هناك من يستحق أي شيء!

دخلت فحاولت أن ترحب بـي بحفـاوة، ولكـنني رددت البـاب بقوة، ودخلت غرفتي بسرعة وأغلقت الباب بقوة خلفي أيضاً، وألقيـت بحقيبتي على الأرض، أريد أن أصرخ، أريد أن أفعل شيئاً، ما!

نظـرت إلى المكتـب، إنهـا الأوراق الـتي كتبتهـا إلى "مـن قـد لا ألتقيه أبداً"، أمسكت بها وبدأت أمزقها الورقة تلو الأخـرى، وبـدأت الدموع تنهال من عيني دون أن أشعر، لقد كنت غاضـباً ويائـساً، أغلـي من كل قلبي.

مزقت جميع الأوراق، ولم يشفِ ذلك غليلي، فرحت أضرب مـا أراه أمامي، ألقي كل ما أستطيع أن ألقيـه، منـه مـا تكـسر، ومنـه مـا بدأت أدوس عليه، ما الذي سيشفي غليلي؟ ما الذي سيهدئني؟

دخل مسرعاً إلى غرفتي بعد أن سمـع الأصـوات الـصادرة منهـا، ورآني أكسر كل شيء، وأمزق كل ما أقع عليـه، حـاول الإمـساك بـي، حاول وحاول، ولكن من الذي يستطيع أن يوقفني؟

أخيراً أزعجني، فلطمته على وجهه، فسقط من فوره، هنا توقفت، لقد فقد وعيه، كلا بل قد تغير شيء في وجهه! لقد أدركت أخيراً أنني فعلت شيئاً فظيعاً!

⁂

الفصل الثاني عشر

أخذني شرطي إلى غرفة منعزلة من المشفى، مر أكثر من أسبوع ولم ألتق به، الرائد ألين.

جلست على الكرسي أمامه، أقول "ظننت أنني لن أراك ثانية"

فنظر إلي قائلاً "أنت تعلم سبب وجودي هنا"

نظرت إليه أخشى ما سيقول، ولكنه كان كذلك "لقد منحتُك فرصة كبيرة، ولم يكن ذلك سهلاً علي، وكان اتفاقنا أن الفرصة تنتهي في حالة وصل اسمك إلى أي مركز شرطة"

طأطأت رأسي، فتابع قائلاً "للأسف لم يدم ذلك وقتاً طويلاً، لقد خيبت أملي"

لم يكن لدي ما أقول، بقيت صامتاً لا أدري ماذا سيحدث، ولكن الرائد قال "لقد رفعتُ يدي عن الموضوع، وسلمتك إلى المحكمة"

رفعت رأسي أنظر إليه بسرعة، ولكنه سار إلى الباب يتجاهل نظراتي ويقول "ستتم محاكمتك غداً، ولأصدقك القول لا أظنها ستكون رحيمة"

خرج من الباب، ودخل شرطي يضع القيود في يدي، وسحبني ليزج بي في السجن.

لم يبق حولي من أسترحمه، لقد فات الأوان! انتهى أمري.

الفصل الثالث عشر

نمتُ في الزنزانة، لقد أخبرني أن المحاكمة ستكون في الغد، كان علي توقيع بعض الأوراق المتعلقة بمحاكمتي السابقة، لم أرد أن أقف الموقف ذاته ثانية، لم أرد أن أعود أدارجي إلى تلك الهاوية، ولكنني هنا أقف وقد فقدت كل أمل في العودة.

بدأت أسمع أصواتاً تنطق باسمي، إنهم يتحدثون عني، ربما حان وقت المحاكمة، وعلي استبدال ثيابي.

بدأت أبكي، ما من مفر، بل ربما كنت محظوظاً بأسبوع قضيته حراً طليقاً، لسبب ما كنت أبكي على الأسبوع الذي عشت أكثر من الماضي الذي ظننت أنه ما يحزنني، ماذا جرى معه؟ هل سببت له تشوهاً ما؟ أوه. لن أنجو من ذلك أبداً، بل ربما أراه يشهد ضدي في المحكمة! ما كان عليهما استقبالي في بادئ الأمر، أنا لا أستحق ذلك!

طلب إلي الشرطي استبدال ثيابي بسرعة، فعلمت أن الأوان قد حان، أظن أن الحكم سيكون صارماً، لا ألومهم في ذلك، ولكنني أرجف، أنا أعلم تماماً ما سيجري، سيقف الجميع ضدي.

أمسكني الشرطي وأخرجني من الزنزانة، ولم أستطع أن أحبس دموعي، إنها تنهمر بغزارة.

سرت في الممر، وقد كان يقف هنـاك إلى جانـب زوجتـه والرائـد ألين! ضماد كبير على أنفه، يبدو أنني كسرته فعلاً!

طأطأت رأسي لا أستطيع أن أنظـر في عيـون أحـدهم، ولم أرد أن يروا الدموع على وجنتي، ولكننا اقتربنا من بعضنا أكثر فأكثر، إلى أن وقفت أمامهم، فقال "لقد سحبت البلاغ"

لم أرفع رأسي، ولم أفهم ما قاله، حتى تابع "لنعد إلى المنزل"

استدار وغادر، لا يبدو أنه كان راضياً تماماً عما يفعل. لحقته زوجته بينما أشار الرائد ألين إلى الشرطي ليتركني.

نظرت إلى الرائد فقال "لقد قرر أن يسامحك، لقد أُلغي الملف بالكامل"

حرر الشرطي ساعدي من القيود، فنظرت إلى الرائد وما تزال الدموع على وجنتي، فقال "اذهب معهما، ستعود إلى المنزل"

استدار الرائد وذهب في اتجاه آخر، لم تستطع أي كلمة أن تجد طريقها إلى فمي، وكان علي اللحاق بأحدهم، فذهبت أسير خلف الرجل وزوجته.

الفصل الرابع عشر

لم ينطق أحدنا بكلمة في السيارة، ودخلنا المنزل، فاتجها إلى غرفتهما ليأخذا قسطاً من الراحة.

بقيت واقفاً في الصالة، وسمعت صوت الباب يقفل، لقد دخلا غرفتهما.

سرت لأدخل غرفتي، ولكنني وقفت أمام باب غرفتهما، حاولت أن آخذ نفساً عميقاً، ولكنه لم يساعد في تهدئتي.

طرقت الباب وصرخت من خلفه "ماذا أخبرك؟... ماذا أخبرك؟"

فأجاب بهدوء "أخبرني أنه سيحكم عليك بالإعدام إذا ما علم أحدهم ما فعلتَ"

"فلماذا تستقبلني؟"

سكت قليلاً ثم قال "لأنني أعتبرك ابناً لي"

أنزلت يدي، وشعرت بضعف كبير وخيبة أمل، ثم قلت "ولكنني لست ابنك"

فقال "وأنا أيضاً لست والدك"

بقيت واقفاً خلف الباب، إلى أن سمعته يقول "أردت أن أمنحك الفرصة"

لقد اكتفيتُ، دخلت غرفتي وأغلقت الباب من خلفي، نظرت إلى الداخل فإذا بها عارمة بالفوضى، كل الثياب ملقاة ومعظمها ممزق، كسرت الطاولة ومزقت الأوراق، الستار ملقى على الأرض، لقد فعلت كل ذلك!

جلستُ أسند ظهري إلى باب الغرفة وتابعت البكاء.



الفصل الخامس عشر

بكيت كثيراً تلك الليلة، واستيقظت باكراً، اغتسلت، وقمت بترتيب ما يمكن ترتيبه في الغرفة.

نظرت في المكتب، وقد تبقت بعض الأوراق الفارغة، إلى جانبها القلم.

جلست لأكتب، وكان هذا ما كتبت

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

لقد خيبتَ أملي، نعم، وتسببتَ بمشكلة كبيرة. لست أدري إذا كنتُ أستطيع أن ألقي اللوم كاملاً عليك، ولكنني أتمنى أن أفعل.

لقد أردتك رمزاً، شيئاً كبيراً في مخيلتي، ولكن يبدو أن العالم قرية صغيرة، فما بالك بالمدينة الواحدة؟

لقد عشتُ ظروفاً صعبة، أدت بي إلى الكثير، فهل عشتَ ظروفي؟ أم أنك عشتَ ما هو أقسى؟

لست أدري إذا ما كنتُ أسوغ لنفسي ما تفعل، ولكن يبدو أنك تسوغها لنفسك، فهل لديك السبب الوجيه لكل ما تفعل؟

ما هو ماضيك؟ وماذا تطوي في خفاياه؟ ربما لن أسألك يوماً، ولكنني سأبقى أتساءل، لك؟ لا، بل لنفسي، لكي يظل لدي الأمل أنك

الشخص الذي أردت، الشخص الـذي أتحـدث إليـه بكـل مـا يجـول في خاطري، الشخص الذي يستقبل مـني كـل مـا أقـول، الـشخص الأكثـر قدرة على الإنصات، هو أنت.

هكـذا أردتـك دائمـاً أن تكـون، وإن لم تكـن كـذلك، فـإنني سأجعلك، أنت هو، أنت من ظننت أنني لـن ألتقيـه يومـاً، وحتـى وإن التقينا، فسيظل هذا الحديث بيننا مسجلاً على الورق.

SOC

الفصل السادس عشر

دخلتْ الغرفـة، فـرأتني أكتـب علـى المكتـب، فارتـسمت علـى وجهها علامات الدهشة والسعادة معاً، بل بدأت تدمع! إنهـا لا تنظـر فيما أكتب، بل كانت تحدق فيما ألبس.

نعم لقد استبدلت ثوبي أخيراً بثوب مما كان في الخزانـة، أظنـه كان لابنها، لهذا كانت تبكي، بل ربما ظنت لوهلة أنني هو!

لم أشأ أن أسألها، فيبدو أنها لم تكن لتتحدث عنـه دون دمـوع، ولم أكن ممن يحبون دموع النساء، فنهضت لأتناول الإفطار معهما على الطاولة قبل الذهاب إلى الجامعة.

في الجامعـة بـات الوضـع روتينيـاً بـسرعة، محاضـرات حـسب الجدول، أجلس للاستماع إلى ما يقوله المحاضر، والجميع هادئون.

محاضرة وحيدة كانت تجمعنـا، جلـستَ باسـتهتار ولم أبـالي، تحدثتَ مع هذا وذاك، وأزعجتَ هذه وتلك، ولم أبالي، ولكنـك أخـيراً جلستَ أمامي وكنتُ أعلم أنك تنوي التحدث إلي.

ربما كان هدوئي هو ما جذبك، وربما كان عليك أن تتعرف على الجميع بما تحتمه عليك شخـصيتك، ولكنهـا كانـت المـرة الأولى الـتي نتحدث فيها معاً بعد الموقف الأول.

أنزلتَ رأسك على طاولتي، فكنتَ تنظر إلي بالمقلوب، ولم آبه لما تفعل، فقلتَ "هل أجد لديك علكة؟"

ليتك لم تتفوه بأية كلمة، فأنا أحاول طول الوقت أن أفصل ما أكتب عما أرى، في كل لحظة تريد أن تجعلني أندم على اتخاذك ذلك الرمز الذي احتجته! قلتُ "لا، لا تتصرف كطفل"

ولكنك ابتسمت ذات الابتسامة الهادئة وقلت "لا أعتبر هذه إهانة"

هل أنا من يتخيل الأشياء أم أنك عميق حقاً؟ لماذا أصر على أن أرى فيك ما لا يراه أحد؟ ربما هي الحاجة في نفسي ليس إلا، أم أنك فعلاً شيء مختلف؟

ജ

الفصل السابع عشر

نزع الضماد عن أنفه، فكان قد ظهر عليه التشوه فعلاً، كان علي الاعتذار بشدة عما جرى، ولكنه لم يترك لي المجال، وكـان غالبـاً مـا يحاول تجنب الحديث معي.

هل هو غاضب؟ هل ألومه على ذلك؟ لماذا يعطيني فرصة أخرى؟ هل يريد أن أشعر بالذنب؟ هل يظنني شخـصاً سيئاً؟ أم... هـل يفعـل ذلك لأجله فقط؟

لا أحب التفكير فيما يفكر فيه الآخرون، فهذا يجعل الحياة معقدة، ولكن عندما يصبح الموقف ذا طرفين، فأكون طرفاً فيه، يتوجب علي التفكير فيما في ذهن الطرف الآخر، وقد بقيت كذلك مدة أسبوع أو أكثر.

فكرت كثيراً بابنهما، ربما مات، وربما تركهما! لـست أدري، أريد أن أجد أسلوباً أتواصل فيه معهمـا ولكـنني لـسبب مـا لا أريـد أن أسمع شيئاً عنه، ربما لأن ذلك يجعلني أشعر أنـني أمثـل دور شـخص آخر ليس أنا، وأنني قد ولدت من جديد ذلك الشخص.

أنا لا أكره من أكون، ولست أدري إذا ما كان هناك من يكـرهني فعلاً، كل ما جرى أنني قد أُعطيت فرصة أخرى للحياة، ولـست أدري بعد ما أفعل فيها!

كتبت لك كل تلك الكلمات، ولففت الورقة، ووضعتها إلى جانب مثيلاتها في الدرج، هل سيحضر اليوم الذي تقرأ فيه تلك الكلمات؟

ဢဣ

الفصل الثامن عشر

في الجامعة، في المحاضرة التي تكون فيها، تغيب المحاضر، وبقي الطلاب يلهون ويتحدثون معاً.

كنتَ أبرزهم، بل بدأتَ لعبة مع جميع الطلاب، المكاسرة.

كنتَ أقواهم، لم يستطع أي طالب التغلب على ذراعك، إنها صلبة جداً.

شعرتَ بالسعادة الغامرة في الفوز على الجميع، وبدأت تبحث عمن لم تهزم بعد، فكنتُ آخر من نظرتَ إليه.

أشرتَ بإصبعك إلي، كنتُ غير مكترث بما يجري، أو على الأقل هذا ما كان واضحاً من تعابير وجهي، ولكنك أصررتَ، حيث تكون بذلك قد هزمت الجميع، فقلتُ لك "على أن تنزع اللاصق الطبي عن أنفك إذا فزت عليك"

أصدر الجميع أصواتاً سعيدة للتحدي، ولكنك ابتسمت وقلت "وماذا إذا ما فزت أنا كما حدث مع الجميع؟"

قلتُ "اطلب ما شئت"

فقلتَ دون تفكير عميق "تتحدث إلى الجميع، وتخرج من عزلتك المزعجة"

ضحك الجميع، ولكنني شعرت أنك تقصد شيئاً ما مما تقول، إنك تريد ذلك منذ زمن! لقد تهربتُ منك كفاية، ولم يعد ذلك محتملاً.

وافقتُ ورفعت أكمامي أتجهز للمكاسرة، ووضعت يدي في يدك، وقبضنا قبضة ملؤها التحدي،

أُعلنت البداية، وبقينا نشد أيدينا مدة، لا يتحرك أحدنا عن البداية أُنملة! كنتَ قوياً، ولكنني رياضي أيضاً، ولكن الحظ لم يكن ليحالفني حيث كنتُ قد ابتعدت عن الرياضة فترة، وبدأت قوتي تخونني، وبدأت يدي تهوي، وتهوي، وتهوي...

فزتَ عليّ بصعوبة، وكان كل منّا عند كلمته، ولكن ما تعجبتُ منه هو سعادة الجميع بفوزك عليّ، ليس لأنهم يكرهونني، بل لأن الجميع كان إلى جانبك، بالإضافة إلى أن الجميع كان يريدني أن أختلط بهم أكثر.

لم يكن الأمر سيئاً، فقد اجتمع الجميع على قلب واحد، وبدأتُ أتعرف عليهم، وقد عرّفتُ بنفسي، ولكنك سألتَ بدقة "هل تمارس رياضة ما؟"

نظرتُ إليك فقلتَ "يدك كانت الأقوى"

ابتسمتُ ابتسامة خفيفة وقلتُ "تركتها منذ زمن، أنا لاعب كاراتيه"

فقلتَ "لاعب جيد"

أخيراً قلتُ ما أدهش الجميع "صـاحب حـزام أسـود، والحاصـل على كأس نوادي القارات لثلاث سنوات متتاليـة"

أصدر الجميع أصوات اندهاش وإعجاب عالية، فابتسمتَ بـهدوء ونـهضتَ قائلاً "كما ظننت"

عندها بدأ الجميع يقترح علي أن أسجل في نـادي الجامعـة، وأن أستعيد لياقتي، جميل أن أحدهم لم يسأل عـن الـسبب الـذي انقطعـت فيـه عن التدريب، كان ذلك أدباً أقدره لهم.

وبقيـتُ أتحـدث إلى الطـلاب إلى أن انتبهـتُ أنـك قـد غـادرت الغرفة.

۞

الفصل التاسع عشر

عدتُ إلى المنزل بوجه مختلف، فقد تحدثتُ كثيراً إلى الطلاب، وانسجمتُ معهم أخيراً.

ولكن التوتر ما يزال على حاله في المنزل،

ما إن دخلتُ حتى سمعت صوتهما يرتفع بالجدال، لم يسمعا صوت الباب يفتح، وقد دخلت أسمع كل ما يتجادلان به.

كانت جدالات متفرقة، ربما كان بعضها يخصني، ولكن لم يكن هناك جديد، شعرت فعلاً أنني في منزل عجوزين، تعبا من مشاغل الدنيا، وأتعبهما طول المعيش معاً! هل كانا هكذا في الصغر أيضاً؟

لم ينطق أحدهما بكلمة واحدة عن ابنهما، كنت أفضل ذلك، ولكنني تعجبت من نفسي أخرج من غرفتي لأطرق الباب عليهما ليعلما أنني قد وصلت، علّهما يتوقفان عن الجدال المزعج.

ما إن طرقت الباب أول طرقة حتى صمتا، قلت بهدوء "لقد عدت"

فتحتْ الباب وقد كان وجهها مخطوفاً برؤيتي في وقت لم تتوقع أن أعود فيه إلى المنزل، فقلتُ "لا تقلقا، لم أسمع شيئاً مما تجادلتما فيه، لقد وصلت للتو"

ربما تحسنت تعابير وجهها قليلاً، ولكنها ما تزال مستاءة لحضوري المفاجئ، فقلتُ "لم تسمعا طرق الباب، فدخلت، هناك بعض المحاضرات علي مراجعتها، سأكون في غرفتي"

اتجهت إلى الغرفة فلم ينطق أحدهما بأية كلمة، لقد كانت ردة فعلهما مبالغ فيها! أو ربما كانا تحدثا بأمور مهمة منذ زمن قصير، ومايزالان يخشيان أن أكون قد سمعت شيئاً.

ೱ

الفصل العشرون

بدلاً من أن أبدأ بالدراسة بدأت الكتابة،

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

إننا نلتقي كل يوم، كزملاء، كمنافسين، كأعداء، لست أدري، كلما نظرت إليك انتابني شعور غريب، وكلما عدت إلى المنزل بدأت الكتابة على الفور.

لطالما ظننت أنك لا تراني، ربما كنتُ مخطئاً، فطلبك لي بالمكاسرة، بل اشتراطك علي أن أختلط بالجميع كان دليلاً كافياً أنك تشعر بوجودي.

لست أدري ماذا أعني لك، بل لست أدري أيضاً ماذا تعني لي، إن هذه الكتابة باتت أهم ما أقوم به في حياتي! هل تعلم ذلك؟

ماذا سيكون انطباعك إذا ما علمتَ أنني أكتب إليك؟ هل ستظن أنني شخص أحمق؟ هل ستضحك؟ لن ألومك على ذلك، فالكتابة باتت الشعرة التي أتعلق بها في هذه الدنيا.

من المضحك أنني كنت في أفضل عيش، وبت الآن أتعلق بأبسط الأمور، وما زلت أتعلق بالحياة، لماذا؟ أما تزال هناك حلاوة للحياة في قلبي؟ أم هو الخوف من الموت والمجهول؟ لا أدري.

الفصل الحادي والعشرون

اتجهت إلى قاعات الرياضة في الجامعة، وبدأت التدريب على الفور.

كان علي أن أستعيد اللياقة التي فقدتها، ولم أكن على عجلة من أمري، فأنا أعلم أن هذا سيأخذ وقتاً طويلاً.

الأغرب من ذلك أنني بدأت أكون صداقات في مختلف المجالات، فقد كانت القاعات مليئة، والناس مرحين وسعداء.

تعرفت على المدرب، وعلى بعض تلاميذه، ولكن أكثر من جلب انتباهي كانت نادية، فتاة نشيطة ورياضية، ترتدي ثياباً لفريق معين، يبدو أنها تشارك في مباريات ما، شعرها أسود قصير، وتقوم بالاستعداد للمباراة.

بقيت أرقبها، وإلى أي ملعب ستتجه، إنه ملعب كرة اليد.

استعدت الفتيات للمباراة، ووقفت بين الجمهور أراقبها، إنها ماهرة ومميزة.



فاز فريقها بضرباتها الماهرة، وكنت سعيداً برؤية المباراة الجيدة، بل إنني قد تشجعت وسرت تجاهها لأبارك لها الفوز، إلى أن رأيتُك، لقد اتجهتَ صوبها قبلي، وباركتَ لها مباركة كان من الواضح أنها حميمة.

وقفتُ بعيداً أنظر إليكما، إنها سعيدة بصحبتك، بل أمسكتَ ذراعها وخرجتما معاً تحتفلان بالفوز وحدكما.

علمت بعدها أنها صديقتك، من الغريب أنني أنجذب إلى ما تنجذب، وأجذب ما تجذب! ما طبيعة هذه العلاقة التي تجمعنا يا ترى؟

٭٭٭

الفصل الثاني والعشرون

عدت إلى المنزل منزعجاً، نعم لقد أزعجني ما رأيت، ربما أردت أن أكون مكانك، أن أحظى بمرافقتها وإسعادها.

بل ربما ظننتُ أنه لم تكن هناك فتاة لتعجب بك، مشاكس ومهمل! فتاة مثلها كيف تعجب بأمثالك؟ هل تخدعها؟

طلبا إلي الجلوس إلى مائدة الطعام، جلستُ ولم أكن أريد التحدث في أي موضوع، وفوق ذلك فقد تحدثا بموضوع لا أحب الحديث فيه مطلقاً!

قال "هل فكرتَ بأن تذهب إلى المعبد لتكفر عن ذنبك؟"

إنه يتحدث عما لا يعرف، ولكنني قلت ببساطة "لم يطلب مني أحد فعل ذلك قط، بل لم أدخل المعبد من قبل"

شعرتُ أنهما يفكران أن والديّ لم يحسنا تربيتي، وحاولتُ تلطيف الموقف وتهدئته، ولكنني كنتُ منزعجاً من أمور أخرى، ونهضتُ أقول باستهتار "سأذهب عندما أصبح في الخمسين، فأكفر عن ذنوبي كاملة"

واتجهت إلى غرفتي لا أريد أن أرى وقع كلماتي على وجههما.

دخلت الغرفة وأغلقت الباب، وأمسكت القلم وكتبت.

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

لقد أثرت فضولي وغيرتي، إنني أغلي، أريد أن أعاتبك على شيء لا ذنب لك فيه، إنك تملك شخصاً رائعاً إلى جانبك، وقد أردتها إلى جانبي بقوة!

ربما يكون هذا ذنباً من الذنوب التي أقترفها، والتي أحتاج إلى غفران الله لها، ولكنني لا أظن أن الله بجاحة إلى رسول ليغفر لي ذنوبي! أفضل الكتابة إليك بها على أن أكشفها لمن لا أعرف.

أنهيت الكتابة واستلقيت على الفراش أفكر بها، نادية، كم هو محظوظ!

لم أستطع الدراسة مطلقاً، أردت أن أتمشى قليلاً في الأسواق، أعلم أنني لن أقدر على شراء الكثير، ولكنني مللت المنزل.

استأذنت منهما بالخروج، ومنذ تلك اللحظة لم يفاتحاني في أمور التدين مطلقاً، ربما يئسا من الأمر أساساً.

الفصل الثالث والعشرون

تمشيت بين الأسواق، كل الوجوه كانت غريبة علي، وما زلت أشعر أنهم يرمقوني بنظرات الغريب عن المنطقة.

ربما لم أكن أعرف كل الناس في مدينتي، ولكن على الأقل لم يكن ينتابني شعور الريبة كما هو الآن.

أردت أن أقف بين الناس، وأن أصرخ بأعلى صوتي، نعم إنه أنا! أنا من نفي من مدينته إلى هذه المدينة! أنا الذي اقترفت ذنباً لا يغتفر، ولكن الحكم قد خُفف علي بطريقة ما! أنا هو من يتوجب عليكم الحذر منه! إنه أنا!

عدت إلى المنزل لا أدري هل كانت فكرة الخروج إلى السوق حسنة أم أنه كان علي البقاء في الفراش، ربما كان النوم أفضل ما أفعل، ولكن من يضمن لي غياب الكوابيس؟

الفصل الرابع والعشرون

عدت إلى الجامعة، وإلى النادي، والتدريب الجاد.

بات التدريب مؤلماً بالنسبة لي، كلما حاولت القيام بحركة ثقيلة أو مفاجئة كان الألم يستوقفني، مازلت أشعر بالعجز، هل أستطيع العودة إلى الرياضة كما كنت في السابق؟

ومن أجل ماذا أعود؟ ماذا أريد من ذلك فعلاً؟ وماذا كنت أريد من ذلك من قبل؟

كنت مشهوراً ومحبوباً ومتفوقاً، كل تلك المشاعر كانت تعني لي الكثير، فهل تعني لي شيئاً الآن؟ هل سأعود إلى ما كنت عليه؟

توقفتُ عن التدريب لحظة، فسمعتُ صوتاً لطيفاً يقول "هل أنت بخير؟"

التفتُّ فإذا بها نادية، لم أقل شيئاً لوهلة، فقالت "تبدو شاحباً، لقد كنت في وضع أفضل البارحة"

البارحة، إنها تذكرني، قلتُ "أنا بخير، يبدو أنني قد آذيت عضلاتي"

قالت "لا ترهق نفسك في التدريب، عليك أن تستعيد لياقتك بالتدريج"

أستعيد لياقتي، كيف تعلم أنني قد تركت الرياضة فترة؟

لوّحتْ بيدها وركضت إلى الملعب لتبدأ المباراة، بينما وقفت بين الجمهور أراقبها، ولم أكن الوحيد، فقد حضرتَ أيضاً، وراقبتَ المباراة.

هذه المرة خسرتْ، إنني ألمح الدموع في عينيها، وكنتَ أول من اتجه إليها لمواساتها، يبدو أنك تعني الكثير بالنسبة لها، بذلك عدتُ أدراجي، وتابعتُ التدريب وحدي.

ᘓᘐ

الفصل الخامس والعشرون

تابعتُ التدريب، واستعدتُ شيئاً من لياقتي خلال أسابيع، ربما كان وجود نادية حولي كافياً لإصراري على المتابعة، رغم أنني أعلم تماماً أنها لك، وأنك لها.

ومرت الأيام، ومرت الامتحانات، كانت علاماتي جيدة، بينما لم أستطع أن أعرف علاماتك، فقد كنت حريصاً على إخفائها عن الجميع، ما زال الفضول يقتلني، هل أنت من الأوائل ولا ترغب لأحد أن يعلم ذلك؟ أم أنك ترسب دوماً ولا تريد أيضاً لأحد أن يعيّرك بذلك؟ لست أدري.

بدأتُ أنضم أكثر وأكثر إلى قسم الكاراتيه، وقد تأكدتُ أنك لا تشارك في النادي على الإطلاق، بل لم أرك تشارك في أي نادٍ في أي مجال في الجامعة! بينما نادية هنا تبذلك قصارى جهدها لتقديم الأفضل، فما الذي يجمعكما؟

كنتُ أراها كل يوم تقريباً، أتحدث إليها قليلاً بين الحين والآخر، صباح الخير، كيف الحال، مباراة جيدة، كان طابع الحديث بيننا، إلى أن بدأتُ أحاول التقرب أكثر.

"هل لديكِ وقت بعد التدريب؟"

"عفواً؟"

"لنشرب شيئاً معاً"

ابتسمتْ وقالتْ "هذا لطف منك، لدي موعد بعد التدريب"

"مع صديق؟"

سكتت قليلاً ثم قالت "أجل"

"إنه محظوظ"

لم يكن لديها ما تقول، فيبدو أنني أثقلت في الكلام، فقلت "ماذا تفضلين فيه؟"

كان من الممكن أن تترك الجلسة، وأن تتفادى وجودي قدر الإمكان، ولكنها لم تفعل، بل سرحت قليلاً ثم قالت بابتسامة "إنه غير متوقع، مندفع وجريء، إنه النوع الذي أفضل"

لم يكن جواباً مقنعاً بالنسبة لي، بل إنه جعلني أشعر أنني لا أفهم الفتيات على الإطلاق! ولكنني قلت "فقط؟"

ضحكت ثم نظرت إلي وقالت "أنت شخص طيب، ولكنني أقابله، ولا أنوي التخلي عنه على الإطلاق"

شعرتُ الآن أنني لم أكن أريد لكما أن تفترقا، بطريقة أو بأخرى كنت أريدها إلى جانبي دون أن تبتعد عنك، إنكما جميلان معاً! ولكن ليس كل الأشياء يمكن أن تفرضها على هذه الدنيا، هناك أمور يجب أن تسلم بها، حتى ولو إلى إشعار آخر.

صـدر الـصفير لبدايـة المبـاراة، فتجهـزت للعـب، فقلـت لهـا "بالتوفيق"

شكرتني ودخلت المباراة، كنت سعيداً أن أداءها كان رائعاً، ولم يتأثر بشيء من حديثنا، ولكن الغريب في الأمر أنكَ اليوم لم تكن هنا!

ﮊﮋ

الفصل السادس والعشرون

لم أعد إلى المنزل، كنت أرغب في الجلوس وحدي أفكر فيما يجري حولي، تأخر الوقت، وأظلمت السماء وبرز القمر، ومازلتُ جالساً أفكر.

بدأت السماء تقطر، إنه مطر قادم، بل بدأ يشتد، إنها عاصفة! بدأت أسير إلى المنزل ولكنني كنت بعيداً.

احتميت تحت مظلة في السوق، ولكن هذا لم يكن كافياً لحمايتي من الهواء البارد.

ركضت إلى المنزل وقد ابتلت كل ثيابي، ووصلت منهكاً، وقابلتني العيون اللائمة.

"أين كنت؟ لماذا تأخرت؟"

"لقد قلقنا عليك"

بقيتُ صامتاً، لم أحب تلك العيون يوماً، إنها شديدة لا رحمة فيها، عيون تتهمني بحدة.

"عليك أن تكون في المنزل قبل الغروب، هل تفهم؟ أنت تسكن الآن في هذا المنزل وعليك أن تطيع من فيه"

بقيتُ صامتاً، لا أحب أن أسمع شيئاً كهذا.

"لا تجعلني أندم على إبقائك هنا"

فتحت فمي لأنطق ولكن صوتي لم يصدر أية كلمة، لقد كنت متعباً، ولا أريد أن أسمع شيئاً.

"إذا ما فعلتَ شيئاً كهذا ثانية لن أتردد بتسليمك"

"هذا يكفي!" أخيراً نطقتُ، نطقتُ من أعماق قلبي لا من فمي "كان بالإمكان أن تتصلوا بي هاتفياً لتعلموا ماذا يجري معي، أوه آسف أنني لا أملك هاتفاً، فيبدو أنكم غير قادرين على تأمينه لي! لقد كنتُ أملك سبعة هواتف بمختلف الألوان، وجهاز لتشغيل الأقراص، وحاسب شخصي، وثلاث سيارات! فماذا تفعلون من أجلي؟ لا تطالبني بما لا تستطيع تقديمه لي!"

اتجهتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ الباب خلفي أشعر بصداع حاد في رأسي، إن دمي يغلي.

فوراً بدأتُ أنفس عن نفسي بالأسلوب الوحيد الذي كنت أملك، بدأت أكسر ما أراه في الغرفة.

صدرت أصوات التخريب من الغرفة، وعلما تماماً أن هذا يحدث مجدداً، بل إنه سيحدث كلما انزعجت!

حاولتْ أن تدخل الغرفة ولكنه منعها، فقد تعرض لضربة كسرت أنفه المرة السابقة، لا أحد يخمن ماذا سيحدث هذه المرة، قرر

أن يتركني وشأني، ليرى إلى ما ستؤول الأمور، وكيف سأهدأ، ولكنه لم يتوقع أن أخرّ مغشياً علي مرة واحدة.

دخل الغرفة بسرعة بعد أن هدأ الصوت، وسمع جسدي يهوي على الأرض بقوة.

ركض إلي وطلب منها أن تجلب ماء بارداً، سكبه على وجهي، فلم يؤد الكثير، فحملاني إلى المشفى بسرعة.

خلال الطريق كنتُ قد بدأت أستعيد وعيي ببطء، شعرتُ بسيارة الأجرة، ثم خرجنا منها إلى الطوارئ، لقد كان يحملني.

أدخلاني الطوارئ بسرعة، هناك لمحتك! لقد كنتَ تسحب فحصاً ما، ربما قد لمحتني أيضاً، لست أدري، ولكنها كانت لحظات، علمتُ أنها ستكون مهمة جداً فيما بعد.

أجلسني الأطباء على فراش، ووضعوا لي مغذي الوريد الذي بت معتاداً عليه، وبدأت أستعيد وعيي.

كنتُ أسرح فيما رأيت، لقد كنتَ هنا! ماذا تفعل بالضبط؟ ولكن أفكاري انقطعت عندما سمعتهما يتحدثان "إنه مجنون! سأنتظر إلى أن يدمر المنزل بالكامل!" "لا تقل ذلك" "يبدو أنهم قد أخرجوه من مصحة ما"...

فتحت فمي أقول بصوت ضعيف "ألين"

سمعاني رغم نقاشهما الحاد، فاقتربتْ مني تسمعني أقول "ألين، أين هو؟"

فقال "إننا نريده أيضاً أكثر مما تظن"

انزعجتْ من تصرفات زوجها، فطلبتْ منه مغادرة الغرفة لتبقى وحدها إلى جواري، فلم يمانع أبداً، وأقفل الباب خلفه.

وقفتْ إلى جواري وقالت بصوت ملؤه الحنان "عزيزي..."

ولكنني قاطعتها فوراً "أنا لست عزيزك، أنا لست ابنك"

تراجعتْ مما قلت، ولكنني تابعت "لست أدري ماذا حصل معه ولا أريد أن أعرف، كل ما أعرفه أنني لا أريد أن أعيش حياة شخص آخر"

طُرق الباب، وفُتح، فكنتَ أنت! يبدو أنك رأيتني أدخل محمولاً في الطوارئ، فرغبتَ أن تطمئن علي، وقد قطعتَ نقاشاً كنت أتمنى أن ينقطع.

قلتَ "لقد ظننت أنك هو! هل أنت بخير؟"

أشرتُ بالإيجاب، فقلتَ "هل أستطيع الدخول؟"

كان تصرفك مؤدباً وخلوقاً جداً، يبدو أن منظري كان على درجة كبيرة من التأثير! أشرتُ بالإيجاب فتركَتْنا وحدنا.

جلستَ إلى جانبي وقلتَ "تبدو شاحباً"

قلتُ "أنا بخير"

"هل تحب أن تتحدث عما جرى؟"

قلتُ "لم يحدث شيء، لا تقلق"

يبدو أنني لم أكن على ما يرام، قلتَ لي "يفضل أن تمدد رأسك، سيكون ذلك أفضل"

ساعدتني على التمدد بكل عناية، لستُ أدري كيف كنتَ هنا في الوقت والزمان المناسبين! فتذكرتُ أنك كنت تسحب فحصاً ما، فقلتُ "ماذا تفعل هنا؟"

قلتَ ببساطة "فحص روتيني لا أكثر" ثم تابعتَ قائلاً "لقد عاد اللون إلى وجهك"

قلتُ "شكراً"

عندها نهضتَ قائلاً "لن أثقل عليك، أردت الاطمئنان فحسب، أراك غداً"

استوقفتك قائلاً "قد لا أحضر إلى الجامعة غداً"

"حسناً، بعد غد، تستطيع أن ترتاح"

"ربما لا أحضر أبداً"

سكتنا، نظرتَ إلي بهدوء فترة، ثم اقتربتَ مني، ونزعتَ قلادة كنتَ ترتديها، ووضعتَها حول عنقي ثم قلتَ "خذ هذه"

نظرتُ إليها، إنها ليست من الذهب أو الفضة، ولكنها متقنة الصنع، رسم عليها قارب جميل بعناية، فقلتَ "ستعيدها إلي غداً في الجامعة" ثم خرجتَ.

خرجتَ وتركتني مع أفكاري، أي نوع من الأشخاص أنت؟ أي تصرف جميل هذا الذي تفعل؟ ولماذا تقوم به معي، أنا الذي لا أتحدث إليك أبداً!

عدتُ إلى المنزل، رغم أن الوضع كان متوتراً جداً إلا أنني لم أكن أفكر فيهما، بل كنت أفكر فيك، وأمسك القلادة بعناية، إنها ثمينة بالنسبة لي بكل تأكيد.

ما إن دخلتُ الغرفة حتى بدأت الكتابة.

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

لا أخفيك أنني قد مررت بلحظات كنتَ قد خيبت كل آمالي فيها، ولكنني الآن أرى شيئاً آخر، شيئاً غريباً يثير الفضول بشكل ملحوظ.

رأيت فيك ما أخبرَتْني عنه نادية، "غير متوقع"، إنك بالضبط كذلك، ولكن هذه الصفة تضفي على شخصيتك كياناً سامياً.

لقد أعطيتني قلادتك، وهي الآن حول عنقي، جميلة ومتقنة الصنع، بل لو تعلم أنني أتمنى فعلاً أن تبقيها لي غداً عندما أعود إلى الجامعة.

لقد أثرت إعجابي وفضولي، واحترامي بشكل كبير، رغم كل ما أحوم فيه من المشاكل، إلا أنك كنت الملاذ الدائم حولي، هل تعلم ذلك يا ترى؟

ꕥ

الفصل السابع والعشرون

استيقظت باكراً، بل لم أستطع النوم جيداً الليلة، كنت أنتظر أن ألقاك، وأن أعطيك القلادة، وقد رسمتُ عدة مشاهد لذلك في مخيلتي.

تارة أقدم لك فيها القلادة فتبتسم وتقول "إنها لك"

تارة ألاقيك منشغلاً مع الجميع، فتتركهم عندما تراني، وتسعد لقدومي إلى الجامعة مجدداً، وتسعد باستعادتك القلادة فتقول "هذا عهدي بك"

وتارة وتارة، كل شيء كان سعيداً الليلة، وكل شيء يجب أن يكون سعيداً هذا اليوم.

ذهبتُ إلى الجامعة، رغم أنهما تعجبا من ذلك إلا أنني متأكد أنهما يظنان أنني لا أريد البقاء بينهما فحسب، بل ربما يظنان أنني لن أذهب إلى الجامعة، بل سأحوم هائماً في الشوارع كما كنت أفعل.

ليس مهماً، المهم أنني سأقابلك، ملاذي في هذه الحياة هو أنت.

دخلتُ المحاضرة التي تجمعنا، وكنتَ جالساً باستهتار على الكرسي كالعادة، ولكنك كنتَ وحدك، وكانت أفضل فرصة لنتحدث معاً.

اقتربتُ منك، وما إن لمحتني حتى عدّلت جلستك أولاً ثم نهضت، ثم ابتسمتَ وقلت "أهلاً بعودتك"

كنتُ سعيداً جداً بذلك، رفعتُ القلادة من حول عنقي وقدّمتها لك، فأخذتَها وفرحتَ بها، شكرتني على الأمانة، ثم سمعتُ أحدهم يناديك، فاتجهتَ إليه.

استوقفتك لأكمل ما كنتُ قد حلمتُ بتحققه، وسألتُك "لماذا فعلت ذلك؟"

هنا ابتسمتَ ابتسامة ساخرة وقلتَ "للمتعة" وضحكتَ علي وتابعتَ المسير.

بقيتُ متسمراً في مكاني فترة، لقد دخلتْ كلمتك كالسكين في صدري، بل كانت ضحكتك ساخرة لدرجة شعرتُ فيها أنني أريد أن أبكي! ماذا فعلتُ بنفسي؟ إلى أي مدى من السخرية حملتها؟

بل كيف كنتَ مثلاً لي؟ كيف توقعتُ من شخص مثلك أن يكون نبيلاً؟ كيف تظن أنك تستطيع التحكم في الناس كما تهوى؟ كيف تركتُ لك المجال لتتحكم بي وتسخر مني؟ هل بت المستضعف هنا؟ هل يسخر الجميع مني هكذا؟ هل كانوا ينتظرون أن تُقدَّم تلك المسرحية الساخرة وتكون البطل فيها؟

تركتُ المحاضرة، ومشيت إلى المنزل، كل المشاعر كانت

تتضارب مع بعضها، "غير متوقع" رنت في أذني كالطنين المؤذي، اللعنة على هذه الصفة المزعجة، ما الجميل في أن لا تدري ماذا سيحصل معك اليوم؟ ما الجميل في أن لا تتوقع تصرفات الآخرين؟

دخلتُ المنزل إلى غرفتي فوراً، وأمسكتُ أوراقي، وبدأت أكتب.

أكرهك، إنني أكرهك من أعماق قلبي، أنت أسوأ من قابلت في حياتي، لا أريد أن أراك ثانية، ولا أريد أن أتعامل معك بتاتاً، أريدك خارج حياتي، بأية وسيلة!

أمسكتُ الأوراق بين يدي، وقبضت عليها بقوة أشعر برغبة شديدة في تمزيقها، ولكنني حاولت أن أتذكر كل مرة أغضب فيها، وما يجري معي، وما قد يحدث إذا ما خرجت من هذا المنزل.

ألقيت بالأوراق على الأرض، ووضعت رأسي على الفراش أحاول أن أنام، ولحسن حظي لم يأخذ ذلك زمناً طويلاً، واستغرقت في نوم عميق.

<>

الفصل الثامن والعشرون

مرت ثلاثة أشهر، انقطعتُ عن الكتابة في الشهر الأول بعد الموقف الفظيع الذي حصل بيننا، ولكنني عدت إليها ثانية، أشعر بارتياح لابتعادي عنك، لقد عدتُ أكتب باسم الرمز الذي حلمتُ به، أخيراً استطعتُ الفصل بين ما أفكر فيه، وبين شخصيتك اللامسؤوله.

عدتَ رمزاً أكشف له أسراري، وأسري به نفسي، وأحل به مشاكلي، عدتَ ما كنتُ أحتاج، لستَ أنت فعلاً، ولكن الرمز الذي صنعتَ منذ زمن.

أما ما يحصل في المنزل فما يزال الجو متوتراً، والزوج لم يجر عملية لأنفه، ظننت أن الشرطة ستتكفل به طالما يقوم على رعايتي، ولكن يبدو أنني كنت مخطئاً، لا أحد ينوي مساعدتي، وقد عانى هاذان الزوجان مني الكثير.

أما عن النادي، فقد استعدت جزءاً كبيراً من لياقتي، وباتت الرياضة همي الوحيد، أريد أن أعود كما كنت، البطل الأول في الكاراتيه، صاحب القلادات والجوائز، وقد خطوت الخطوة الأولى هنا، واشتركت في الدوري، وعلي أن أواجه خمسة أشخاص.

فزت في أول ثلاث مباريات، ولم يتبق لي سوى مباراتين اثنتين، وأنا في أتم الاستعداد.

بـدأتْ المبـاراة، وقـد كانـت المنافـسة شـديدة، طبعـاً فقـد بقـي المنافسون الأقوى، ولكن المباراة سارت بـشكل جيـد، وقـد تمكنـت مـن إسقاطه أرضاً في النهاية.

فزت في المباراة، ولم يتبق لي سوى منافس واحد لأفوز بالدورة، وأرتقي إلى دورة أعلى مستوى.

دخلـتُ غرفـة تبـديل الثيـاب وكنـتُ وحـدي، نزعـتُ قميـصي وأدرتُ ظهـري إلى البوابـة، وانتبهـتُ متـأخراً إلى أحـدهم قـد دخـل الغرفة، لقد كنتَ أنت.

بقيتَ واقفاً على الباب تحدق فيما رأيت، ندبة كبيرة مائلة على الجانب الأيسر من ظهري، يبدو أن هذا كان كافياً لتفهم الوضع الحرج الذي أقف فيه.

بقيتُ واقفاً لا أتفوه بكلمة، عندها سمعتُ صوت طـلاب آخـرين يريدون الدخول، فأغلقتَ الباب، وانفردتَ بي.

ارتديتُ قميصي بعدها فتحتَ الباب، ودخل التلاميذ ليـستبدلوا ثيابهم.

بقيتُ واقفاً مكاني أنظر إليك، وبقيتَ مكانك، يبدو أنك تفكـر، لا أشك أنك علمتَ أن هذه عملية في كليتي اليسرى، وهـذا قـد يمـنعني من المشاركة بأي مبارزة، ولكن أحداً لا يعلم هذه الحقيقة غـيرك الآن، أظنك تفكر فيما تفعل.

خرج الطلاب وبقينا وحدنا ثانية، نظرتَ إلـي وابتـسمتَ قـائلاً "ماذا ستفعل لي مقابل ألا أخبر أحداً؟"

بدأتَ الابتزاز بسرعة، قلتُ "وماذا تريد؟"

اقتربتَ مـني مـسروراً بـالكنز الـذي حـصلتَ عليـه وقلـتَ "كـم تساوي هذه المعلومة بالنسبة إليك؟"

بقيتُ ثابتاً وقلت "كم تريد؟"

اقتربتَ مني أكثر وقلتَ "هل لديك المال الكثير؟"

لم يكن لدي أي مال، وليس لدى العائلة أيضاً شيء أدفعـه إليـه بكل تأكيد، مع ذلك تابعتُ أقول "ما تشاء"

ضحكتَ وقلتَ "أنا أعلم أنـك لا تـستطيع أن تـدفع مـالاً، فلمـاذا تكابر؟"

بقيتُ صامتاً، ولكنك قلتَ "لا أريد المال"

"إذن ماذا تريد؟"

اقتربتَ من أذني، وهمستَ فيها "سر"

لم أفهم ما تعني، فنظرتَ إلي وقلتَ "سر بسر، ألتقيك اليـوم في الساعة العاشرة مساء في المطعم المقابل لبوابة الجامعة الخلفية"

لم تترك لـي الوقـت للاستفـسار عمـا يجـول في خـاطرك أكثـر، غادرتَ المكان سريعاً وتركتني في حيرة من أمري!

الفصل التاسع والعشرون

إلى أي مدى من اللامبالاة، من الإهمال، من الانحطاط، أما الآن استفزاز أيضاً! إلامَ ترمي؟

بقيتُ ممدداً في الفراش، كتبتُ الكثير على الورق، ولكنني عدت أكتبه إليك، لقد تعبتُ، تعبتُ من التناقض الواضح في تعاملك للأمور، أنت شخص سيء، مستفز، أناني، مهمل، ومع ذلك لم أستطع أن أبعدك عن حياتي، لماذا يتقاطع القدر معك دائماً؟

كم أتمنى لو أستطيع ألا أذهب إلى الموعد المحدد، كم أتمنى لو تكون لدي القوة لمواجهتك، ولكن... لا أستطيع أن أترك هذا الخبر يسري في الجامعة، سأفصل من الدوري والنادي بكل تأكيد، هذا إذا لم أحصل على إنذار أو طرد لخرق القوانين!

هذا وقد وصلتُ أخيراً إلى عمل ما أحب من جديد، جئتَ لتفسد عليّ راحة البال، عليّ أن أواجهك مواجهة أخيرة، وأن أضع حداً لما تفعل، يجب أن تخرج من حياتي، بأية وسيلة.

الفصل الثلاثون

الساعة العاشرة، العاشرة والنصف، الحادية عشرة إلا ربـع، لم تحضر! هل هذه لعبة أخرى من ألاعيبـك؟ هـل فـضحتَ أمـري في كـل الأحوال؟ أم أنك علقتَ في شجار تافه مع شباب الشوارع كالعادة؟

بدأتُ أشعر بالضجر، ولكن كلما نهضتُ شعرت بأهميـة الأمـر بالنسبة لي، فجلستُ ثانية.

طلبتُ كأساً من العصير، وباتت الساعة الحاديـة عـشرة، وفـتح باب المطعم، فكنتَ أنت.

لمحتني فحضرتَ، وجلستَ مقابلي وقلتَ "آسف على التأخير"

شربتُ رشفة من عصيري وقلتُ "هل علقت في شجار ما؟"

ولكن نظراتك كانت جدية، وقلتَ "لقد كنت في العمل"

حدقتُ في عينيـك الجـادتين، وقـد تابعـتَ حينهـا "أعلـم تمامـاً فكرتك عني، مهمل، أناني، مستهتر، لا بأس"

اتجهتُ فوراً إلى صلب موضوعنا قائلاً "ماذا كنت تريد أن تقـول لي؟"

عدّلتَ جلستك وقلتَ "مقابـل أن أكـتم مـا رأيـت أريـدك فقـط أن تستمع إلي"

"ماذا لديك؟"

نزعتَ اللاصق الطبي عن أنفك أخيراً، فكانت هناك ندبة صغيرة، لا تتجاوز الثلاث سانتيمترات عرضاً.

ابتسمتُ وقلتُ "هل هذا كل شيء؟"

"اصبر"

نظرتُ إليك، بعد ربع دقيقة بدأ الدم ينزف من الندبة، إنه جرح غير ملتئم، قلتُ "وماذا في ذلك؟"

قلتَ "لقد مرت ثلاث سنين، وهذه الندبة على حالها، لم تلتئم أبداً"

فتحتُ فمي لأنصحك أن تذهب إلى الطبيب، ولكنك كنتَ قد قرأتَ ذلك في عيني سلفاً وقلتَ "لقد ذهبت إلى مجموعة من الأطباء، وعملت فحوصات متعددة، بل أخذت عنها عينة، إلى ما إلى ذلك من أنواع العلاج والقطب، ولكن لا فائدة، إنها تنزف دون أي سبب واضح"



لم أقل شيئاً، ربما لم أشعر بعد بأهمية الأمر، ولكنك قلتَ "لقد اضطررت أحياناً لأخذ وحدة من الدم بسبب النزيف، ربما يكون ما ترى قليلاً، ولكنه مستمر طول اليوم"

لم يكن لدي الفضول لأسمع المزيد، فقلتُ "ولماذا تقول لي ذلك؟"

مسحتَ الدم من على وجهك، وأعدتَ اللاصق على أنفك وقلتَ "لأن كتمان السر أصعب من إفشائه"

بدأتْ كلماتك تدور في رأسي، وعدتُ إلى حيرتي من جديد، من أنت؟ هل أنت فعلاً الشخص المستهتر الأناني التافه الذي أفكر فيه، أم أنك أعمق مما أتصور؟ هل تعامل الناس باستهتار حيث أنك ترى ما هو أبعد منهم جميعاً، أم أنني أغرّ بك من جديد؟

ﮧﮨ

الفصل الحادي والثلاثون

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

سر بسر، هذا كان أسلوبك، يبدو أنك مختلف عن الآخرين، لقد أثرت فضولي مراراً.

ربما تكون فعلاً شخصاً غير متوقع، ولكنك عميق، هذا أمر بتّ متأكداً منه.

ولماذا تختارني؟ لماذا تحملني سرك؟ هل تثق أنني لن أبوح به، أم لأن سرّي بات لصالحك؟

ربما لن أستطيع أن أجيب عن سؤال واحد من أسئلتي، بل ربما لا تملك أنت الجواب أيضاً، ولكن هل يهم ذلك؟

ماذا أريد منك؟ أريدك رمزاً لا أكثر، هل مازلتَ كذلك؟

الفصل الثاني والثلاثون

إنها المباراة الأخيرة، بانتصاري أستطيع أن أشارك في مباريات أكبر، وجوائز أفضل، أستطيع أن أعود كما كنت، البطل الأول.

تجهزت جيداً للمباراة، ووقفت في الحلبة، فكنتَ هناك، رأيتك بين الجمهور تقف في الصفوف الأولى، لقد كنتَ تهتف لي!

أنا فعلاً لا أفهمك، ولكن وجودك كان جميلاً، أنا الآن جاهز لأقدم الأفضل.

بدأت المباراة بصوت رنين الجرس، واشتبكنا بسرعة، وعلا صوت الجمهور بالهتاف، لابد أن صوتك قد اختلط بأصواتهم.

كان القتال عنيفاً، وقد كان ماهراً، انتهى الشوط الأول دون أن يحرز أي منا نقاطاً مميزة، وبدأ الشوط الثاني، وجّه إلي ضربتين استطعتُ التصدي لهما بيدي، ولكنه عندها وجه ضربة قوية إلى خاصرتي اليمنى، ولم يكن بإمكاني التصدي لها على الإطلاق، فكانت إصابة مباشرة!

سقطتُ أرضاً أتألم بشدة، وانتهت المباراة على ذلك، وقد وجدتك إلى جانبي فجأة تحملني على كتفك وتهرع بي إلى غرفة داخلية تطمئن بها علي.

لقد كنتَ قلقاً، وقد شحب وجهك بوضوح، إلى أن استطعتُ استعادة وعيي جيداً بدأتُ أسمع ما تقول "آدم! آدم! هل أنت بخير؟ هل تسمعني؟ هل أنت بخير؟..."

"أجل أنا بخير"

أجلستني على كرسي وقد حضر المدرب وامتلأت الغرفة بأناس لم أكن أعرفهم، الجميع قلق علي، ولكن قلقك كان مختلفاً.

طمأنتُ الجميع، ولم يمض وقت حتى استطعتُ الوقوف على قدمي ثانية، أريد العودة إلى المنزل، أريد أن أجلس وحيداً.

تركني الجميع أخرج من الغرفة يشعرون بالأسى لما جرى، ولخسارتي المباراة، ولكنك الوحيد الذي لحق بي خارج الغرفة، وخارج المبنى، ما تزال قلقاً.

استوقفتني لتقول "ألن تذهب إلى المشفى؟"

"أنا بخير"

"اصدقني القول، ما مشكلة الندبة؟"

لم أقل شيئاً.

"إنها عملية في كليتك اليسرى، ما كانت المشكلة؟"

لم أقل شيئاً.

"هل تعمل أم لا؟"

كان سؤالك مباشراً وقلقاً، ولكنني قلتُ ببساطة "ليست لدي كلية يسرى"

لم تتحمل ما سمعتَ، وقلتَ باضطراب شديد "فلنذهب إلى المشفى، يجب أن تطمئن على كليتك اليمنى!"

"أنا بخير"

"ليس صحيحاً! ليس من المفترض أن تتعرض لضربة كهذه، لقد كانت شديدة ومباشرة!"

"أخبرتك أنني على ما يرام!"

"ستذهب عنوة"

نظرتُ إليك بانزعاج وقلتُ "ومن تظن نفسك؟ أنت تعاملني كوالدتي"

وأخيراً استعملتَ سلاحك الأخير "إذا لم تذهب معي الآن إلى المستشفى وحالاً سأخبر المدرب بكل شيء"

لم أستطع أن أقول شيئاً، إنه جاد جداً.

بقيتَ صامتاً تنتظر ردي على ما قلتَ، ابتسمتُ وقلتُ "ولكنني سأفشي سرك حينها"

"ليس مهماً، افعل"

كان سري أكبر وأهم من سرك بكثير، ما تزال قادراً على فعل ما تشاء بي.

أمسكتَ يدي بقوة وسحبتني معك إلى أقرب مشفى، ولم أقاوم.

الفصل الثالث والثلاثون

أجريتُ فحوصات وصوراً متعددة في المشفى، ولم يظهــر أي تــأثر سلبي على عمل الكلية اليمنى.

ارتحتَ كثيراً، وكأنك صاحب الكلية المتضررة لا أنا.

خرجنا من المشفى وقد غربـت الـسماء منـذ ساعات، جلـسنا في الحديقة واشتريتَ عصيراً لكلينا.

كان الارتياح بادياً عليك، بينما مـا زلـتُ منزعجـاً، حاولـتَ أن تتقرب إلي أكثر، أن تفهم ما أشعر، ساعة دون فائـدة، كنـتَ تتحـدث فقط، وكنتُ أمسك بعلبة العصير أحدق فيها.

لم أغادر، ولم أتحدث، كنـتُ فقـط جالـساً، فقـط صـامتاً، لـستَ تدري ما أريد، كما أنني لستُ أدري ما أريد.

أخيراً شعرتَ أن الحديث الجانبي لـن يحـسن الوضـع، فنظـرتَ إلي مباشرة وقلتَ "ما الأمر؟"

لم أنطق، فرفعـتَ العـصير مـن بـين يـدي حيـث كنـت أحـدق، فنظرتُ إليك، فأعدتَ السؤال "ما الذي يزعجك بالضبط؟"

أخيراً قلتُ "لقد خسرت"

ابتسمتَ ابتسامة مريحة، من الجميل أنك لم تسخر من شـخص

يفكر في المباراة بدلاً من التفكير في سلامته اللحظة، ولكن المباراة كانت تعني لي الكثير، كانت تعني لي الخروج من دائـرة مزعجـة، العـودة إلى الحياة الحقيقية، العـودة إلى كـل مـا كنـتُ أحـب في الحيـاة، أريـد حياتي، وهنا توقفتْ في مرحلة مبكرة جداً.

أعدتَ العصير إلى يدي وقلتَ "لقد كانت المباراة رائعـة، لا أشـك أنك قادر على الفوز"

"ولكنني لم أفز"

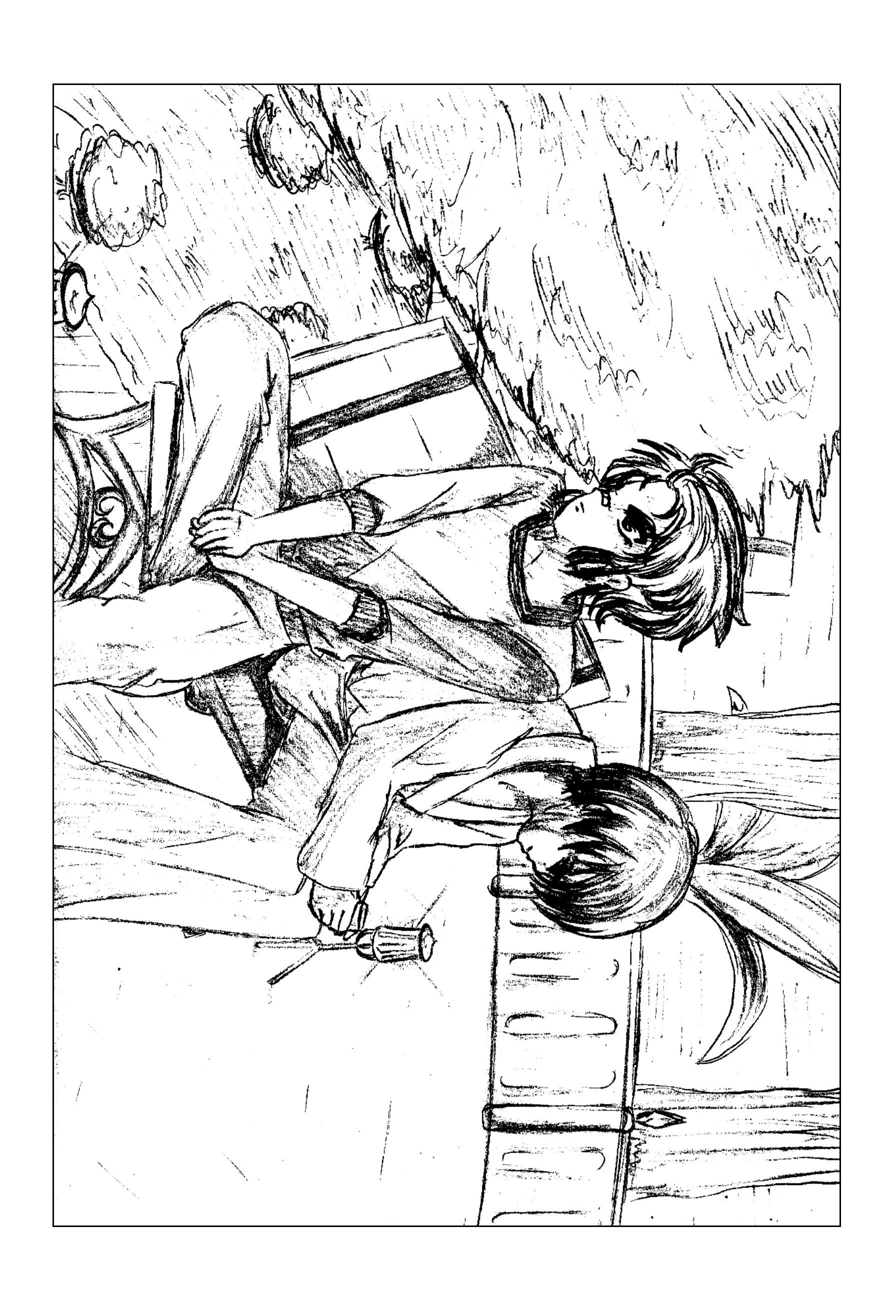
وتوقفتُ عن الكلام، أي حرف كان سيذرف معـه دموعـاً لم أرد لأحد أن يراها.

وقفتَ وقلتَ "لا مشكلة في البكاء"

"لا أريد لأحد أن يراني أبكي"

جلستَ على الكرسي وأدرت ظهرك إلي، وقلتَ "ها أنا لا أنظر، تكلم فقط"

بقيتَ صامتاً تنتظر بكل صبر ما سأقول، وفعلاً انذرفت دموعي عند أول كلمة "لقد كنتُ بحاجة إلى الفوز، كنتُ أحتاجه..."



من الواضح أنني كنتُ أبكي، ولكن لم يكن لدي مانع الآن طالما لم تكن تنظر، قلتَ "أي حاجة بالضبط؟"

"كنتُ بحاجة إلى كل شيء في المباراة، المكافأة، الترقي، أريد أن أصل إلى المباريات الدولية، هناك أنتمي فعلاً"

"لقد كنتَ بطلاً دولياً"

"لقد فزتُ وحصلت على كأس نوادي القارات لثلاث سنوات متتالية، أريد أن أستعيد كل ذلك"

"خسارتك في هذه المباراة لا تعني أنك لن تستعيد ما كنتَ عليه، تستطيع المشاركة مرة ثانية، سيكون كل شيء على ما يرام"

"لم أكن لأخسر مباراة بسيطة كهذه"

"حتى وإن بات الوضع أصعب، فإنه لا يعني أنه مستحيل"

مسحتُ دموعي، ثم قلتُ "ما هو كتابك المفضل؟"

تفاجأتَ من سؤالي، ولكنك أجبت سعيداً "هناك كتاب يتحدث عن أساطير الحضارات، أحب قراءته كثيراً، فهو مترجم إلى عدة لغات"

"هل تعيرني إياه؟"

"بكل تأكيد"

"الآن"

فكرتَ قليلاً وقلتَ "إنه مع نادية الآن"

سكتنا معاً ثم قلتُ "أريد كتاباً الآن"

فكرتَ وقلتَ "ولكن المكتبات مغلقة الآن"

"أعرني كتاباً"

سكتّ، نظرتُ إليك وسألتك "ألا تملك غير ذلك الكتاب؟"

"أحب القراءة، ولكنني أستعير من المكتبة العامة، ليس لدي كتاب غير الذي ذكرته لك"

بدأتُ أفكر، إنك تعمل في المساء وتدرس في الصباح، سألتك "مع من تعيش؟"

"أعيش وحدي"

"ألهذا تعمل؟"

"إنه أمر طبيعي، ألا تفعل ذلك؟"

أشرت بالنفي، يبدو أن حياتي مختلفة عن الجميع، فسألتني "مع من تعيش؟"

لم أرد أن أطيل الشرح، أجبتك اختصاراً "مع والديّ"

قلتَ متعجباً "أما زلت تعيش معهما؟"

نهضتُ قائلاً "صدقني ليس خياري، أنا مضطر لذلك"

بدأتُ أسير فلحقتَ بي إلى أن وصلنا إلى مفترق الطرق، طلبتُ

إليك أن تعود إلى منزلك، فقد أصبحتُ على ما يرام، وعندما بدأتَ تسير مبتعداً عني ناديتك "إبراهيم!"

توقفتَ والتفتّ إلي، فقلتُ "شكراً"

ابتسمتَ ابتسامة سعيدة، وقلتَ "هذه أول مرة تنادي فيها اسمي، أنا سعيد لسماعه منك"

فعلاً كانت تلك أول مرة، ولكنني لم أتخيل أن تركز في الأمر إلى هذه الدرجة.

عدنا للمسير ثانية كل في اتجاه.

الفصل الرابع والثلاثون

دخلتُ غرفتي أنظر في الرفوف، هناك بعض الكتب، اقتربتُ منها، ولكنني علمتُ الآن لماذا لم أقرأ منها إلى الآن، كلما نظرت إليها، كلما اقتربت منها أو حاولت لمسها انتابني شعور غريب باقتراب الموت.

كلما نظرت في هذه الكتب شعرت بروح صاحبها تحوم حولي، فخفت من لمسها، بل تعجبت كيف يتركان لي الغرفة كاملة لأستخدم كل ما فيها، ألا تهمهم ذكراه؟

نظرت في العناوين، إنها متنوعة إلى حد كبير، بل يبدو أنها تتفاوت في الفئات العمرية أيضاً، يبدو أنه كان من النوع المحافظ.

ترددت كثيراً في فتح إحداها، ولكنني فعلت، وتمددت على الفراش أقرأ إلى أن غلبني النوم.

نمت الليلة دون دموع، لقد هدأت بطريقة ما، لست أدري ما الذي كنت أحتاجه، ولكن يبدو أنك قد أعطيتني إياه.

ꕥ

الفصل الخامس والثلاثون

ذهبتُ إلى الجامعة اليوم التالي، وكنتُ أسير في ممرات الجامعة عندما ناديتني وركضت إلي.

قدّمتَ إلي الكتاب، إنه كتابك المفضل "أساطير الحضارات"

نظرتُ إليك متعجباً وقلتُ "ألم يكن مع نادية؟"

"لقد أخذته منها اليوم صباحاً"

"هل أعادته إليك؟"

"لم تكن تقرأه بشكل مستمر، فاستعدته منها"

تعجبتُ لما فعلت "كيف تأخذه منها قبل أن تكمله وتعيده بنفسها؟"

"لقد أردتَ أن تقرأه"

"ولكن..."

"خذه فحسب"

أخذتُ الكتاب من يدك وسألتك "ألم تنزعج من تصرفك هذا؟"

"ولماذا تنزعج؟ إنه كتابي وقد بات عندها وقتاً طويلاً"

"هل تعلم أنك ستعطيني إياه؟"

"نعم"

"أنت غريب الأطوار"

ضحكتَ وقلتَ قبل أن تغادر بسرعة "المهم أن يعجبك"

نظرتُ إلى الكتاب بين يدي، إنه فعلاً غريب الأطوار، أحب أن أعلم أي نوع من الكتب يفضل

عدتُ إلى المنزل وكلي شوق للقراءة، قرأتُ الكثير، الكثير، ولكن ياللعجب، إن الكتاب... ممل.

☙❧

الفصل السادس والثلاثون

أنهيتُ قراءة الكتاب في يوم واحد، رغم أنه لم يكن النوع الذي أفضل من الكتب، إلا أنني كنتُ عازماً على إنهائه وإعادته بأسرع فرصة.

شخصية غريبة غير متوقعة مثله ظننتُ أنه يحب كتاباً كثير المغامرات، ولكنني دهشت كثيراً بكتابه المفضل، أظن أنه غير متوقع إلى حد أكبر مما تصورت.

بعد قراءتي للكتاب كان لزاماً علي أن أكتب، إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

لقد أعرتني الكتاب، وقد كان ذلك لطفاً كبيراً منك، ولن أنسى أيضاً أنك كنتَ قلقاً علي بعد المباراة، هناك بعض الأمور التي باتت تجمعنا أكثر بشكل غريب.

أما عن الكتاب، فقد ظننتُ أنني ربما أستطيع فهمك به أكثر، ولكنني كنت مخطئاً، لقد زدتَ تعقيداً، ولم أعد أفهم منك شيئاً على الإطلاق.

أخذك الكتاب من صديقتك وإعطاؤه لي كان تصرفاً جريئاً، هل سببتُ المشاكل بينكما يا ترى؟

وضعتُ القلم على الطاولة، إن نادية تعلم تماماً ما جرى، أستطيع أن أسألها إذا ما كان شيء كهذا قد أزعجها.

الفصل السابع والثلاثون

ذهبتُ إلى النادي، وقد حملتُ الكتاب معي، وبحثتُ عن نادية إلى أن وجدتها تتدرب على أجهزة اللياقة.

قدمتُ لها الكتاب فنظرتْ إلي وقالت "هل أنهيت قراءته؟"

"نعم"

ابتسمتْ مندهشة "هذا مدهش! يبدو أنه قد نال إعجابك"

"ألم يعجبك؟"

ضحكتْ وقالت "لم أستطع أن أنهي قراءته، كلما بدأته كان هناك كتاب آخر أريد أن أقرأه بدلاً منه"

"ها أنا أعيده لك، وآسف على ما جرى"

"ليس عليك أن تعتذر أبداً، أعده إلى إبراهيم، لربما أعاده إلى مكتبه أخيراً"

"أنت لا ترغبين في قراءته"

"ليس من النوع الذي أفضل"

"إنه كتاب ممل"

نظرتْ إلي متعجبة، لقد أنهيتُ الكتاب في يوم واحد وها أنا أقول عنه إنه كتاب ممل! فقلتُ "أنهيته في يوم واحد لأنني أردت ذلك، ولكنه كتاب ممل"

ضحكتْ ضحكة خفيفة وقالت "أعده إليه، إنه كتابه المفضل"

لقد تجنبتْ الحديث أكثر من ذلك، هل بتُّ أيضاً شخصية غير متوقعة؟

ꕥ

الفصل الثامن والثلاثون

التقيت بكَ في المحاضرة، وقدمتُ إليك الكتاب وقلتُ "لقد أنهيته"

فرحتَ كثيراً لذلك، وقلتَ بكل حماس "هل أعجبك؟"

"نعم، إنه غريب جداً، لم أر كتاباً مثله"

"لقد قرأته أكثر من عشر مرات، غريب هو عقل الإنسان، يختلق الأكاذيب ثم يصدقها"

ابتسمتُ ابتسامة خفيفة شعرتُ فيها أنني قد فهمت القليل مما تفكر.

هكذا وقد بتُّ ألتقيك كثيراً، لقد تقاربنا، وتعارفنا، لم تعد كما ظننتُ، أني لن ألتقيك بعد أبداً، لقد بتنا أصدقاء.

جلسنا معاً نتناول الغداء، بعد حديث خفيف قلتُ لك "هل تعلم، عندما التقينا أول مرة ظننت أنني لن أراك بعد أبداً"

ولكنك قلتَ "ولكنني كنتُ على يقين أننا سنلتقي"

نظرتُ إليك متعجباً، فقلتَ "عندما كنتُ أمام الشاطئ، وحضر المزعجون ليسترجعوا نقودهم، كنتَ تظن أنني نسيت ذلك اليوم، ولكنني كنت على يقين أننا سنلتقي"

"لماذا؟"

شربتَ العصير وقلتَ "ربما كان حدساً"

"أنا جاد، كيف عرفت أننا سنلتقي؟"

ضحكتَ وقلتَ "أنا أؤمن بأمور غريبة، لستَ مضطراً للاستماع إليها"

"أريد أن أسمع، هيا أخبرني"

ابتسمتَ ونظرتَ في كأسك، فكرتَ كثيراً قبل أن تقول "هل كنتَ تفكر بي؟"

لم أصدق أنك تقول ذلك، لم أستطع حتى أن أخبرك أنني كنتُ أفكر فيك طول الوقت، بل كنتُ أكتب إليك بكل صدق.

قلتَ "بينما كنتَ تظن أنك تفكر بي دون أن أفكر بك، كنت أؤمن أنني أفكر بك وأنت تفكر بي، هذا كل ما في الأمر"

"وكيف تعرف ذلك؟"

"حدس"

لم أكن مقتنعاً، ولكن الحديث انتهى على هذا النحو.

هل سأكتب إليك من جديد؟ بعد كل ما سمعت، وبعد انعقاد صداقتنا، هل علي أن أكتب على الورق الذي لن تقرأه، أم أنني الآن قادر على مبادرتك أطراف الحديث مباشرة؟

الفصل التاسع والثلاثون

كان الجواب على تساؤلي سريعاً، فما إن وصلت إلى المنزل حتى أمسكت القلم وعاودت الكتابة.

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً، بل إلى من بات صديقاً مقرباً لي،

لقد التقينا مراراً، وها نحن الآن أصدقاء.

لم أكن أتصور ذلك، بل لم أكن أتصور أنك كنتَ تتوقع ذلك، يبدو أنك ذو حدس قوي، ويبدو أنني سأستمر في الكتابة، فما يزال هناك الكثير مما لا أستطيع قوله صراحة.

ربما كرهتك في فترة ما، ولكنني الآن بت أفهمك، ربما أصبحتْ مفاجآتك أقل، أو أنها باتت متوقعة أكثر بالنسبة لي، ولكنك ما زلت الشخصية الغير متوقعة، والتي أعلم تماماً الآن لم تحبها نادية.

احتجتَ بعض الوقت، وعديداً من الفرص، كما احتجتُها أنا.

أتمنى فعلاً أن تكون صداقتنا قوية كفاية لتصمد عبر الزمن، فلا أريد أن أخوض التغيير ثانية، أحب ما أنا عليه الآن، أحب أن أظل على ما أنا عليه، لا أريد أن أبدأ ثانية، أريد أن أتابع...

الفصل الأربعون

لم يتغير الحال في المنزل، كنتُ غالباً ما أجلس في غرفتي، أقرأ كتاباً، أو أراجع محاضرة، أو أكتب إليك، أما هما فكانا على حالهما، أو حسب ما أظن، فلم يكن هناك احتكاك بيننا.

اعتدتُ على النظر في أنفه دون أن أبالي، اعتدتُ على أن أتناسى الفاعل والنتيجة، كان علي أن أتابع.

كنتُ أضع رأسي على الوسادة أحاول النوم عندما سمعتُ أصواتاً في المنزل، سعال، التالية أقوى من سابقتها، خزائن تفتح وتغلق بانفعال، تراطم كؤوس زجاجية صغيرة، يبدو أنها قوارير أدوية.

لم يعد الوضع يحتمل، حتى وإن بقيتُ في الغرفة فلا أمل لي في النوم.

فتحتُ الباب فإذا به يجلس على الأرض من شدة السعال، وقد بدأ يعاني من ضيق شديد في التنفس، بينما كانت تبحث في الخزائن عن دواء، يبدو أنها تعلم تماماً عم تبحث.

شعرتُ أن الوضع كان سيئاً، وأنه لن يتوقف عن السعال إلا بالدواء الذي تبحث عنه، اتجهت إليها وسألتها عما يجري، فقالت مرتبكة "كنت أكيدة أن الدواء لم ينفد بعد، ولكنني لا أجده"

قلتُ لهـا "اكـتبي اسـم الـدواء، أسـتطيع أن أجلبـه بـسرعة مـن الصيدلية المجاورة"

في لحظات أعطتني علبة الدواء الفارغـة، واتـصلتْ بالإسـعاف، وخرجتُ بسرعة من المنزل إلى الصيدلية المجاورة.

اشتريتُ الدواء، وعدتُ إلى المنزل، كان بخاخاً لم أكن أعلـم أنـه يستعمله طول الوقت، استنشقه وسرعان ما سار مفعوله.

توقف السعال، وعاد يتنفس بهدوء، وبعد عـشر دقـائق وصـلت سيارة الإسعاف.

أخذناه إلى الطوارئ للاطمئنان عليـه، وقـد تحـسن حالـه جـداً، وعدنا إلى المنزل بعدها.

عدت إلى فراشي، وأغمضت عيني لأنام، فطـرق البـاب، وفتحـه فتحة صغيرة ليطل بها برأسه فقط.

نظرتُ إليه فقال "شكراً"

قلتُ "لا شكر على واجب"

أغلق الباب.

ربما كان أصغر حوار يمكن أن يدور بين شخـصين، ولكنـه كـان وافياً.

الفصل الحادي والأربعون

تحدد موعد حفل مسائي في الجامعة، وكان علي أن أجهـز ثوبـاً رسمياً لها.

فتحتُ الخزانة أبحث عن ثوب مناسب، ولكنني لم أجد.

جلـستُ إليهـا وسـألتها إذا كـان بالإمكـان أن أشـتري ثوبـاً مـا للحفل، ولكنها عرضت علي أن تخيطه بنفسها.

لست أدري كيـف سيكون الثـوب، ولكـن كـان لـدي الاسـتعداد الكامل للتغيب عن الحفل إذا ما كان الثوب غير لائق.

أخذتْ القياسات المطلوبة، وانطلقتْ لتشتري القماش.

كان كل من إبراهيم ونادية يتجهزان أيضاً، من الطبيعـي أنهمـا سيكونان معاً، أما أنا فلم يكن لـدي مرافقـة، ولكـن هـذا لم يكـن أمـراً أساسياً في الحفل على كل حال.

اقترب موعد الحفل أكثـر فـأكثر، وكنـتُ أشـعر أن ناديـة تقـوم بتجهيزات كبيرة، فالحماس باد عليها.

أظن أن تجهيزات كهـذه أكثـر تعقيـداً عنـد الفتيـات، فكـل مـا احتجته هو أن أطلب ثوباً ملائماً، وأظن إبـراهيم يفعـل الـشيء ذاتـه، لدي فضول كبير لأعلم ما يفعل الفتيات في كل هذا الوقت؟

دخلتُ المنزل فإذا بالثوب قد بات جاهزاً، إنه معلق بشكل أنيق، لا أصدق أنها خاطته بنفسها!

قدِمتْ إلي وقالت "هل أعجبك؟"

قلتُ "إنه جميل، هل خِطتِهِ بنفسك؟"

أشارت بالإيجاب ثم قالت "ظننت أن اللون الأسود هو الأنسب لبشرتك البيضاء، ووضعت لمسات حمراء قاتمة في بعض الزوايا، كل شيء معد"

حملتُ الثوب، وعرفتُ أن قياسه ملائم تماماً لي، قالتْ "جرِّبه"

"إنه يناسبني بكل تأكيد"

"أريد أن أراه عليك"

ارتديتُ الثوب وقد كان ملائماً جداً، لم يكن لديّ حماس كبير للحفل، ولكن شيئاً ما في هذا الثوب جعلني أشعر أنني أريد أن أكون الآن في الصالة.

فرحتْ كثيراً بعملها، فسألتها "هل كنت تخيطين دائماً؟"

أجابت "كل الثياب في خزانتك هي خياطة يدي"

لم أكد أصدق "هل هذا صحيح؟"

أشارت بالإيجاب.

لم أكن أعلم أنها ماهرة إلى هذه الدرجة، لطالما نظرتُ إليها على

أنـها عجوز تحتاج إلى العناية، لم أتخيل أنـها قادرة على القيـام بـشيء كـهذا.

طلبتْ إليّ أن أعطيها الثـوب حتـى تـضعه بعنايـة في الخزانـة، فأعطيتـها الثوب وقلتُ لها "شكراً جزيلاً"

ﮧﮨ

الفصل الثاني والأربعون

يوم الحفل.

كان الحضور كبيراً، والجميع متألقون، كل الثياب رائعة، كل الروائح عطرة، الجميع سعداء، معظمهم يمسك بيد صديقته، ولكنني لم أكن الوحيد الذي يسير وحده.

ربما كان معظمهم يظن أنني أنتظر صديقتي، ولكن الحقيقة كانت مختلفة.

لمحتُ أميرة تقترب من بعيد، إنها تتجه إليَ، إنها رائعة الجمال، ثيابها براقة، وتحمل محفظة صغيرة بلون الحذاء، وشعرها أسود مزركش بالحُليَ، إنها... نادية.

اقتربتْ بخطوات أنثويّة شفافة، فرحتُ كثيراً لاستقبالها، ولكنها سرعان ما سألت "هل رأيت إبراهيم؟"

ربما شعرتُ بخيبة أمل، ربما شعرتُ بالغيرة، إنك محظوظ جداً باسمك يرن بين شفتيها باهتمام كبير.

أعادت السؤال "هل رأيت إبراهيم؟"

قلتُ "لا، ليس بعد"

"لقد تأخر"

"سيحضر بالتأكيد، هل تشربين شيئاً ما؟"

"حسناً"

شربنا العصير معاً، وبدأ الـرقص الثنـائي، أغنيـة تلـو أغنيـة، مرت نصف ساعة، اتصلتْ بك ولكن لا أحد يرد!

"إنه في الطريق، لابد أنه قريب" حاولتُ أن أطمئنهـا، ولكـنني أعلم أنني أيضاً لست مرتاحاً.

بعد ربع ساعة أخرى قمتُ بالاتصال بنفسي، فلم تجب.

مرت ساعة كاملة، لم تحضر، ولا مجيب على الهاتف.

بات الوضع متوتراً قليلاً، مرت ربع ساعة أخرى، نظرتْ نادية إلي تسأل "هل ترقص معي؟"

لقد كنتُ محظوظاً جداً، ربما كان غيابـك حـسنة لـي، لم أمـانع أبداً، وبدأنا الرقص بهدوء على الأغنية الرومانسية.

هل أفعل الشيء الصحيح؟ ماذا إذا مـا دخلـتَ الآن؟ هـل أسـبب مشكلة كبيرة، أم أنني فقط أقوم بتسلية ناديـة ومواسـاتها؟ هـل أفعـل ذلك فعلاً؟

سألتُها "لماذا طلبت إلي أن نرقص؟"

تنهدتْ ثم قالت "لقد تعبتُ كثيراً في تحضير الفستان والمكيـاج، خسارة أن يذهب ذلك هباء"

توقفتُ عن الرقص فوراً، نظرتْ إليّ وقد تغيرت ملامح وجهـي تماماً، حاولتْ أن تقول شيئاً ما، ولكـنني وضـعت إصـبعي علـى فمهـا وقلت "يجب أن لا نفعل ذلك"

تركتُ الحفل كاملاً واتجهت إلى المنزل.

ﮰﮯ

الفصل الثالث والأربعون

ما هو الجواب الذي كنت أنتظر؟ أنها كانت ترغب في مراقصتي طول الوقت؟ أنها كانت تريدني ولكنها كانت تسير معك قبلي؟ أنها تريد أن تتركك من أجلي؟

كم أنا شخص سيء، ربما لم يكن جوابها لطيفاً، ربما شعرتُ أنني مجرد احتياط ليس إلا، ولكن لم يكن علي أن أكون أكثر من ذلك.

بم تفكر الآن؟ ماذا ستفهم من تصرفي هذا؟ وماذا إذا ما علمتَ بما جرى؟ أوه، لقد وضعتُ نفسي في مشكلة كبيرة، ليتني لم أذهب إلى الحفل أساساً.

تذكرتُ حينها أنك لم تحضر، ولم ترد على الهاتف، رفعتُ الهاتف واتصلتُ ثانية، لم ترد.

المشكلة أنني لا أعرف أين تسكن، ولا أستطيع أن أطمئن عليك بأسلوب آخر، لست أدري ماذا أفعل، هل حدث لك مكروه يا ترى؟

لم أستطع النوم الليلة، بل كنتُ أتصل بين الحين والآخر، لربما أجبتني، لربما كنتَ تضع هاتفك في مكان لم تنتبه عليه، لربما كنتَ نائماً، أتمنى.

اتصلتُ عدة مرات بمحاولات يائسة، ولكن واحدة من تلك

المحاولات نجحت خلاف كل التوقعات!

"إبراهيم، إبراهيم؟"

سمعتُ صوتك ضعيفاً وكأنك تستيقظ من نوم عميق "من يتكلم؟"

"أنا آدم، هل أنت بخير؟"

"بخير، كم الساعة الآن؟"

"إنها الثالثة من منتصف الليل، هل أنت نائم؟"

"إنها الثالثة من منتصف الليل، ماذا تظن أنني فاعل؟"

"لم تحضر الحفلة، ولم ترد على الهاتف، لقد قلقنا عليك"

"حفلة!"

"الحفلة الجامعية، لقد انتظرتك نادية كثيراً هناك"

لم تقل شيئاً، سكتّ فترة، يبدو أنك لا تتذكر، قلتُ "هل نسيت الأمر؟"

"لقد نمتُ بعد العمل مباشرة، لقد كنتُ تعباً، لم أستيقظ إلا الآن، كيف هي نادية؟"

"قلقتْ كثيراً عليك، يجب أن تتصل بها"

"هل تظنها مستيقظة إلى هذه الساعة؟"

"اتصل بها"

"حسناً" سكتّ قليلاً ثم قلتَ "هل كانت جميلة؟"

هل يحــق لــي أن أجيـب عـن سـؤالك هـذا، أنـت تمـنحني ثقـة عمياء، قلتُ بصوت نادم "أجل، جداً"

ثم أغلقنا الهاتف.

∞

الفصل الرابع والأربعون

لست أدري ما جرى بينهما، ولكن المياه قد عادت إلى مجاريها، يبدو أنك قدمتَ إليها سبباً مقنعاً لتغيبك، أو أنها اعتبرت ذلك من الأمور الغير متوقعة في شخصيتك.

جلستُ إليك أحاول أن أشعر؛ هل تظن أنني أخونك، ويبدو أن التوتر كان بادياً عليّ، فقد لاحظته فقلتَ "هل حدث شيء ما؟"

"بأي شيء؟"

"لا تبدو على ما يرام"

فكرتُ قليلاً أحاول أن أبتعد كل البعد عن الحفلة، فقلتُ "فكرت أنني لم أزرك في منزلك يوماً، بل أنا لا أعرف أين يقع"

ابتسمتَ وقلتَ "أنا لا أستقبل أحداً في منزلي، إن الفوضى عارمة فيه"

كان هذا سبباً كافياً بالنسبة لي، ولكنك قلتَ "أظن أن منزلك مرتب حيث تقيم والدتك فيه"

"أجل، إنه كذلك"

"هل أستطيع أن أزورك يوماً؟"

نظرتُ إليك أفكر، في وقع ذلك عليهما، هل سيرحبان بك؟ قلتُ "يوماً ما"

"هل تقيم حفلـة في مناسـبة مـا؟ هـل سـنزورك في عيـد مـيلادك مثلاً؟"

سكتّ، هـذه المـرة طـال سـكوتي، شـعرتَ أن هنـاك خطبـاً مـا، ولكنني قلتُ بصراحة "إبراهيم، هل نحن أصدقاء؟"

قلتَ "نعم"

"هل أستطيع أن أخبرك بسر؟"

"لا مشكلة"

"أنا لا أسكن مع والديّ، أنا أسكن مع عجـوز وعجـوزة في منـزل واحد، ولا أعرف عنهما شيئاً"

"لماذا؟"

"إنـها حكاية طويلة، ولا أنوي أن أتحدث في أمرها الآن"

"ولكنك لست مضطراً إلى ذلك، أنت في العشرين"

"صدقني الأمر ليس كما تظن"

هكذا أنهيتُ ما كنت أريد أن أقول، ولكنك قلتَ "هل تعلـم لمـاذا لم أحضر الحفل؟"

نظرتُ إليك، وقلتُ "سر بسر؟"

ابتسمتَ وقلتَ "لقد أخذتُ جرعة كبيرة من المنـوم ذلـك اليـوم، ولم أستيقظ بسهولة"

"منوم!"

"أنا لا أنام بسهولة"

"لست مضطراً إلى ذلك"

"صدقني الأمر ليس كما تظن"

رددتَ إلي كلمتي، فلم أستطع أن أتابع الحديث، ثم ودعتني إلى لقاء قريب.

ꕥ

الفصل الخامس والأربعون

عدتُّ إلى الكتابة، إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

إلى صديق أشعر بالفضول الكبير لاكتشافه.

سر بسر، كان أسلوبك في الحياة، هل تريد أن تتحدث إلى هذه الدرجة؟ هل تخشى أن أفشي سرك إلى هذا الحد؟ إذا ما كنتَ تريد التحدث عما يجول في نفسك فبإمكانك أن تجد صدراً رحباً هنا! ألا تثق بذلك؟

ولماذا أفشي سرك؟ ما الفائدة التي سأجنيها من ذلك؟ هل تخشى أن أتركك؟ هل ما قمتَ به في حياتك كان أسوأ مما قمتُ به؟ أم أنك تريد أن تتأكد من ذلك بنفسك قبل كل شيء؟

الفضول كان أكثر ما يجمعنا، فهل سيهدأ كل ما يدور بيننا إذا انتهى ذلك الفضول؟ هل هذا هو السبب؟

بتّ أثق بك، وبتقديرك للأمور، فأنت لست الشخص التافه الذي كنت أظن، أنت أعمق مما ظننت، وسأثق بك، إنه قراري، أن أثق بك إلى النهاية.

الفصل السادس والأربعون

بدأ دوري جديد للكاراتيه في الجامعة، وكان علي أن أفوز فيه مهما كلف الأمر.

تدربتُ كثيراً، وساعدتني دوماً، وبتُّ أكثر استعداداً وقوة من ذي قبل.

أنا شاكر أنك لم تذكر أبداً شيئاً عن كليتي وعمليتي، ولم تحاول أن تثنيني عما أفعل، رغم أنني أظن أنك تخالفني الرأي، ولكنك ماتزال تحترم رأيي.

كان الدوري يتقد حماسة، وبات المشجعون كثر، وشعرتُ أثناء المباراة أن الكثيرين قد حضروا لتشجيعي يبدو أنه قد بات لدي معجبون دون أن أعلم.

مباراة تلو مباراة، انتصار تلو انتصار، والمباراة الأخيرة الفاصلة كانت من نصيبي.

فزت بضربة حاسمة، فانطلق جميع المشجعين يهتفون: إلى الملعب، عانقتَني إلى جانبك نادية، كما عانقني الكثيرون من الزملاء فرحاً، وباركوا انتصاري.

الفصل السابع والأربعون

احتفلنا بالفوز، ثم عدتُ متأخراً إلى المنزل.

رغم أن الدوري امتد عدة أيام إلا أنني لم أذكره لهما أبداً.

دخلتُ غرفتي، وبدأتُ أكتب.

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً، إلى صديقي المقرب.

لقد وقفتَ إلى جانبي، لقد ساعدتني، لقد كتمتَ سري، أنت نعم الصديق.

لقد فزتُ بالدوري، لأنك دفعتني إليه ثانية، لقد حصلتُ على الجائزة بمساعدتك، لقد جعلتَ مني سعيداً في لحظات ظننتُ أنني لن أذوق فيها السعادة أبداً.

نعم، أنت نِعم الصديق، ولن أجد صديقاً أفضل وأقرب منك، ربما ماتزال تكتم عني بعض الأسرار، ولكن هذا ليس مهماً، كل شيء سيحين وقته وأجله.

أما أنا، فأنا الآن أثق بك، لم يعد لدي أدنى شك في أمانتك وصدقك وتفانيك في الوقوف إلى جانبي، فهل تثق بي كما أثق بك، أم أنني مازلت أحتاج لبعض الاختبارات الغريبة التي تقوم بها بين الحين والآخر؟

ليس مهماً، حتى وإن كانت ثقتك صعبة المنـال، فإنهـا تـستحق ذلك، فأنت تقدم الكثير، وأعلم أن يوماً ما ستطلب الكـثير، ويجـب أن أكون مستعداً.

أعدك أنني لن أخذلك.

ᘓᘐ

الفصل الثامن والأربعون

جلستُ أقرأ كتاباً بعد أن أنهيتُ الكتابة، فطرق الباب، وفتحه.

لقد انقضى وقت طويل على الحادثة ولكن عينيّ ما تزالان تقعان دوماً على أنفه المكسور.

قال "هل لي بلحظة؟"

قلت "تفضل"

عندما أفكر في الأمر، ربما كانت هذه أول مرة يجلس إليّ فيها في غرفتي لنتحدث بهدوء.

قال "هل تقرأ؟"

"نعم، إنها رواية"

"هل أستطيع أن أجلس؟"

"بالطبع، تفضل"

إنه حريص جداً على ألا يزعجني! ما الأمر؟

سكتَ قليلاً ثم قال "لدي شيء أحب أن أقدمه لك"

"ما هو؟"

أخرج من جيبه هاتفاً محمولاً، نظرت إليه أتساءل بما يفكر؟ ولكنه قال "لقد اشتريته من أجلك"

لم أعلم ما أقول، تذكرت أنني ذكرت شيئاً كهذا منذ مدة، أنهم لا يجلبون لي ما أحتاج إليه، أنني كنت أملك الكثير! أوه أما يزال يذكر كل ذلك؟

قلت "شكراً"

"كل الشباب يملكون هواتف محمولة، آسف أنني لم أستطع أن أجلبه لك قبل الآن"

"أنا شاكر جداً"

أخذت الهاتف فقال "إنه ليس من النوع الثمين، ولكنني حرصت أن يكون جديداً"

"إنه جيد"

"أعلم أنك كنت تملك أفضل منه"

إن لديه أسلوباً مميزاً في الكلام يقودني إلى ما يرمي مباشرة، ابتسمت وقلت له "نعم، هذا أردأ هاتف أمسكه في حياتي"

لم ينطق بأية كلمة، فلم يتوقع رداً جافاً كهذا، ولكنني ضحكت وقلت "ولكنه أوانه المناسب"

لم ينطق بأية كلمة، وضعت الهاتف جانباً ثم قلت "هناك الكثير مما ينقصنا في هذا المنزل، نحن لا نتحدث أبداً"

"أنت لا ترغب بذلك"

"اليوم فزت في مباريات الدوري في الجامعة، وسأشارك في الدوري المحلي"

"هذا خبر رائع! تهانينا"

"سأعتبر الهاتف هدية فوزي، أنا فعلاً سعيد به"

"لو كنت أستطيع أن أجلب لك أفضل من ذلك لفعلت"

"أعلم ذلك، وأعلم تماماً أنه لم يكن شراء هذا الهاتف سهلاً، لهذا سأعتني به جيداً"

وضع يده على كتفي وقال "يوماً ما ستصبح مشهوراً وغنياً، ستشتري كل ما ترغب فيه، أنت تستطيع تحقيق كل ما تريد"

"أريد أن أكون سعيداً"

نظر إلي وقال "هذا قرارك"

أشرتُ بالنفي وقلت "أنا أعلم تماماً لم أنا هنا الآن، أنتم لستم سعداء، يجب أن أسعدكم حتى أصبح سعيداً"

تابعتُ أقول "السعادة شيء متبادل، من بدأ بها كان الأفضل، إذا أحببتُ أن تسعدوني فعليّ أن أبادر بإسعادكم"

فكر قليلاً ثم قال "من المفترض بنا أن نسعدك كوصيين عليك"

"أنتما لستما وصيين علي، فوالداي لم يموتا"

من الواضح أنه لم يكن يعلم ذلك، ولكنني تابعت "أنتما والداي الآن، يجب أن تكونا سعادتي"

ابتسم بعد فترة وقال "حسناً، وكيف تنوي أن تسعدنا؟"

فتحت الدرج وأخرجت القلادة الذهبية، وقدمتها إليه قائلاً "هذه قلادة المرتبة الأولى، إنها لكما"

تعجب لما أفعل، وحدق بالقطعة الذهبية الخالصة، ربما لم ير مثلها في حياته، ثم قال "لقد حصلتَ عليها بنفسك، أبقها معك"

أشرت بالنفي وقلت "أنت تعلم ما نحتاج إليه، السعادة، خذها واشتر لي بها السعادة"

بات في حيرة من أمره، لم يعد يعلم ما يفعل، أخذ القلادة وفي يده رجفة خفيفة، ونظر إليها يتفحصها ويمتع عينيه ببريقها، إنها ذهب خالص!

كنت سعيداً بالقلادة بين يديه أكثر منها بين يديّ، إنه يمسكها للمرة الأولى كطفل يتفحص كرة ملونة.

بعد تقليب للقلادة عدة مرات قال "سأكون حريصاً"

دخلت الزوجة عندها تقول "شاب يقف على الباب، يطلبك"

ﮋﮊ

الفصل التاسع والأربعون

كان الوقت متأخراً على الزيارات، بل لم يكن أحدهم يزورني أساساً، اتجهت إلى الباب في حيرة من أمري، فكنتَ أنت.

رحبت بك وأدخلتك رغم دهشتي بوصولك إلى منزلي، والزيارة المتأخرة، بالإضافة إلى ملامحك التعبة الغير مطمئنة.

أدخلتك المنزل فسألتني على الفور "هل لي أن أبيت الليلة هنا؟"

"بكل تأكيد" نظرتُ إلى الرجل وزوجته فأشارا إليّ بالإيجاب، وقالت "أصدقاء آدم مرحب بهم في أي وقت"

شكرتها وأدخلتك غرفتي.

لم تكن على ما يرام، كنت متعباً، وشعرتُ برجفة خفيفة في جسدك عندما وضعتُ يدي على كتفك أطلب إليك الجلوس.

قلتَ "آسف على الإزعاج"

ابتسمتُ وقلتُ "أبداً، أنا سعيد جداً بقدومك، إنها أول مرة تدخل فيها منزلي"

"ألا أسبب لك المتاعب؟"

"أبداً، لا تفكر في الأمر، تصرف كأنك في منزلك"

جلستَ على الفراش، فسألتك "هل تشرب شيئاً؟"

قلتَ بصوت تعب "أنا متعب، أريد أن أنام"

من الواضح أن شيئاً سيئاً قد حدث، جلستُ إلى جانبك وسألتك "هل حدث مكروه؟"

"أبداً، لا شيء من هذا القبيل"

لم أشأ أن أضغط عليك أكثر، ولكنك نظرتَ في الغرفة وقلتَ "أين سننام؟"

كانت الغرفة صغيرة، والسرير لا يتسع لاثنين، فقلتُ بكل بساطة "أنت ستنام هنا، وسأذهب لأنام في الصالة"

"لا، لن أفعل ذلك"

استوقفتك عندما حاولتَ النهوض، وقلتُ لك "أنت ضيف هنا، ستنام على فراشي، ولن أناقش في ذلك"

حاولتَ أن تناقش ولكنني استوقفتك ثانية، ونهضتُّ من الفراش قائلاً "أنت مرهق، سأتركك لتنام الآن"

تركتك في الغرفة وحدك، وأخذتُ معي لحافاً، وتمددتُ على الأريكة.

لم يكن ذلك مريحاً، ولكنني لن أتركك تغادر المنزل مهما كلف الأمر، يبدو أن شيئاً فظيعاً قد حصل، ولا تستطيع أن تتحدث بشأنه الآن.

الفصل الخمسون

لم أستطع النوم، لم تكن الأريكة مريحة أبداً.

بعد ساعتين نهضتُّ فزعاً، تـذكرتُ الأوراق الـتي أكتـب عليهـا موزعة على المكتب، تخيلتُ لحظة أن عينك قد تقع على إحداها!

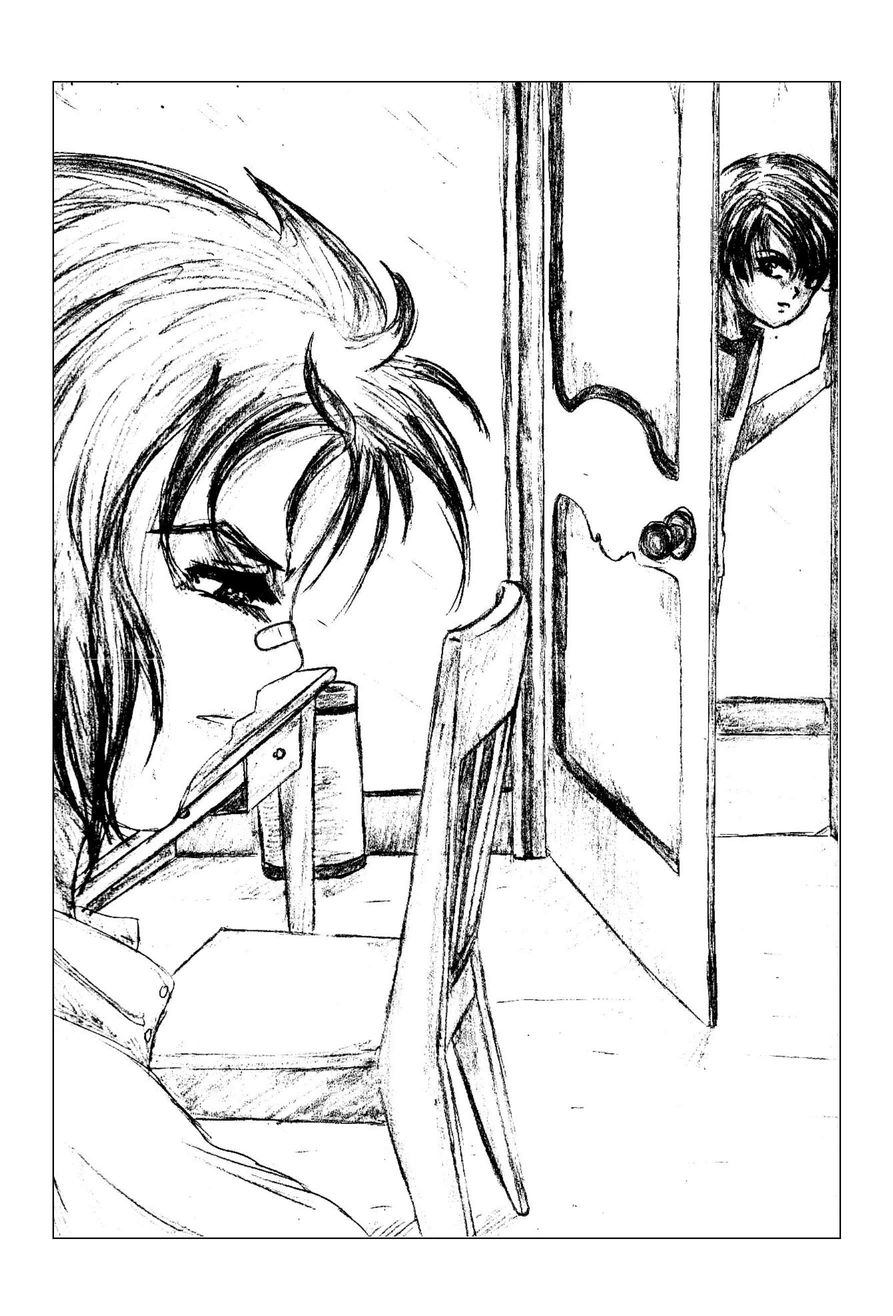
أسرعتُ إلى غـرفتي، وفتحـتُ البـاب بهـدوء، نظـرتُ مـن شـق صغير فإذا بك جالس على الفراش، تحدق بشيء ما بين يديك كان أبعد من أن ألحظه.

دخلتُ الغرفة فلم تنظر إليّ، ماتزال تحدق بما بين يديك، إنها حبوب منومة.

كنت تحاول فتح إحداها لتتناولها، ولكن يدك كانـت ترجـف، فصعب عليك ذلك.

اقتربتُ منك وجلـستُ علـى الفـراش أمامـك وسـألتك "كـم حبـة أخذت؟"

فقلتَ "يجب أن أنام، لقد مضت ثلاثة أيام"



وضعتُ يدي على يديك وقلتُ بهدوء "هذا يكفي"

سحبتُ المنوم ببطء وسهولة من بين يديك، فقلتَ "يجب أن أنام، يجب... أن..." ووضعتَ جبينك على كتفي.

إنك ترجف، يبدو أنك صادق فيما تقول، لم تنم ثلاثة أيام متتالية. وضعتُ يدي حول ظهرك أسندك بلطف وقلتُ "ما الذي جرى؟"

قلتَ "ما زلتُ أسمعه، إنه يبكي، يبكي..."

لم أفهم ما تقول، ولكنك ببطء وتقطع بدأتَ تحدثني "سكان المنزل المجاور... رجلان عجوزان يسكنان وحدهما... قبل ثلاثة أيام... قامت ابنتهما بزيارة... يبدو أن لديها طفلاً صغيراً... إنه يبكي... يبكي كل ليلة... أسمع بكاءه دائماً... أكره ذلك... أكره ذلك الصوت... أكرهه..."

يبدو أنك أخيراً خلدتَ إلى النوم، وضعتُ رأسك بهدوء على الوسادة، إنك منهك تماماً.

༄

الفصل الحادي والخمسون

نظرتُ إلى الطاولة، الرسائل كلها كانت هناك، مرتبة حيث أحدثها كان في البداية.

نظرتُ إلى آخر رسالة كتبها، "إلى صديقي المقرب" "أنت نِعم الصديق" "أنا الآن أثق بك" "فهل تثق بي كما أثق بك؟"

إذا كنتَ قد قرأتَ رسالة، فستكون هذه على الأقل، نظرتُ إليك، إنك نائم.

أمسكتُ القلم، وبدأتُ أكتب .

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

أنت الآن إلى جانبي، تنام بهدوء على فراشي، من المضحك أنني ما أزال أكرر أنني ظننت أنني لن ألتقيك، هذه عجائب الدنيا.

لقد تحدثت إلي، وأظن بصدق أنك قرأت الرسالة الأخيرة، وكانت ما دفعك للحديث.

لم يكن ما قلتَه مفهوماً، ولكنه أفضل من لا شيء، أتمنى فعلاً أن تثق بي، أتمنى فعلاً أن أحمل عنك شيئاً مما حملته عني.

سر بسر، كان أسلوبك وما يزال، وبما أنك قد قرأت رسالتي، كان عليك أن تكشف على الأقل عن السبب الذي دفعك للمجيء إلى هنا.

لقد بتُّ أفهمك، على الأقل أكثر من ذي قبل، ولكنني أعلـم أنـه ما يزال أمامي الكثير.

꧁꧂

الفصل الثاني والخمسون

فتحتَ عينيك فجأة، نظرتَ إلى المكتب، كنتُ ما أزال أكتب.

نظرتَ إلى الساعة، لقد نمتَ أربع ساعات!

جلستَ على الفراش، فنظرتُ إليك وقلتُ "لقد نمتَ جيداً"

وضعتَ يدك على جبينك وقلتَ "يبدو ذلك"

نهضتُ من المكتب لأجلس على الفراش إلى جانبك، فابتسمتَ لما يجري، فقلتُ "أخيراً"

قلتَ "أخيراً"

"أظن أن أربع ساعات قد تكفيك يومك هذا"

"ليس من عادتي أن أنام أربع ساعات، إنه أكثر مما اعتدت عليه"

"وكم ساعة تنام في اليوم؟"

"ثلاث ساعات"

"هذا لا يكفي!"

ضحكتَ وقلتَ "يكفي، لابد أن يكفي"

سكتنا معاً، فنظرتُ إلى الورق على مكتبي، عندها طأطأتَ رأسك. انتبهتُ إلى ذلك فقلتُ "أعلم أنك قرأتها"

"آسف لذلك، لم أعلم أنه أمر خاص"

أشرتُ بالنفي وقلتُ "الذنب ذنبي، فقد كان واضحاً على المكتب"

لم أستطع أن أخمّن انطباعك عما قرأت، فقد كنتَ تطرق في التفكير وقتاً طويلاً، لقد قرأتَ الكثير عنك، ألا تأبه بذلك؟

نهضتُ قائلاً "سنتأخر عن الجامعة"

نظرتَ إلى ثيابك، فلم تكن مناسبة للدوام، قلتُ "تستطيع أن تستعير ثياباً مني اليوم" فتحتُ الخزانة، وانتقيتُ منها ثوباً لترتديه، شكرتني وتركتك لتستبدل ثيابك.

بعدها تجهزنا للخروج، وطلبتَ إليّ لاصقاً طبياً تستبدل به اللاصق الذي على أنفك، فلاحظتُ أثر الدماء على اللاصق، إنك ما تزال تنزف.

شكرتَ أصحاب المنزل على استضافتهم.

سرنا معاً إلى الجامعة، فسألتك "إبراهيم، كيف عرفتَ مكان منزلي؟"

ابتسمتَ وقلتَ "إنه المنزل الذي تدخله كل يوم"

"هل كنتَ تراقبني؟"

"لا، إنها المصادفة ليس إلا"

"أين منزلك؟"

لم تقل شيئاً، فقلتُ "هذا ليس عدلاً!"

"إنه بعيد وصغير"

إنك تتهرب من الموضوع، فقلتُ "وأين سأذهب إذا ما واجهتُ بعض المتاعب؟"

توقفتَ عن المسير، ثم قلتَ "آسف، لن أفعل ذلك ثانية"

قلتُ "الأمر ليس كذلك، لقد كنتُ سعيداً أنك حضرت"

ولكنك قلتَ ثانية "لم يكن من المفترض أن أفعل ذلك"

"قلتُ لك أن هذا غير صحيح"

تابعتَ المسير تتجه إلى قاعة محاضرتك مبتعداً عن الطريق الذي أسلكه إلى محاضرتي، فقلتُ "لقد أفسدتَ كل شيء!"

ولكنك تابعتَ المسير.

الفصل الثالث والخمسون

هل هو الكبرياء؟ هل هو الغموض؟ أم هل هذه طبيعة تـصرفاتك الغير متوقعة؟

لقد قطعتُ العهد أن أثق بك، وأنـت تعـرف ذلـك، فهـل لأجـل ذلك تختبرني؟

ماذا علي أن أفعل؟ بل ماذا ستفعل أنت؟

محاضرة تلو المحاضرة، كلي أفكار مشتتة، انتظرتُ المحاضـرة التي تجمعنا بفارغ الصبر، ولكنك لم تحضر.

كـان هـذا مـا ينقـصني، أن تبتعـد عـني، أن أفقـد كـل الفـرص للاقتراب منك.

هل ندمتَ فعلاً على البارحة؟ أظنك كنتَ مـضطراً لـذلك، ألهـذا تبتعد عني؟

لا أفترض أن هذا تصرفك مع نادية أيضاً، أم أنهـا تعرفـك أكثـر مني؟

خرجتُ من المحاضرة الأخيرة أتجه إلى المنزل، سمعـتُ أصـواتاً تتشاجر عند الجدار الخلفي للجامعة، شـعرتُ أنـه علـيّ أن أسـرع إلى هناك، فكان ما توقعت.

لقـد كنـتَ تتـشاجر مـع ثلاثـة طـلاب آخـرين، يبـدو الغـضب والانفعال واضحاً على وجوههم.

كان أحدهم يمسك بك، والآخر يضربك، والثالث يصرخ بـصوت مرتفع بالتوبيخ والإهانات.

ركضتُ إليك فوراً للمساعدة، ولكنك استطعتَ الإفلات، وضربتَ اثنين بقوة أسقطتهما أرضاً، أما الثالث فقد غـير رأيـه بالقتـال عنـدما رآني أقترب بسرعة.

هرب الثلاثة، وقد كان وجهك مليئـاً بالكـدمات، كـل مـا قلتَـه حينها "جبناء، يهربون وهم ثلاثة"

استدرتَ لتغادر لا تأبه بشيء، فأمسكتُ ذراعك، ألا يكفي أنني لم أرك طول الوقت، أراك مثخناً بالكدمات، ثم تغادر كأنك لم ترني.

لم تستطع النظر في عيني، فعلمتُ أنك تتهرب مني، قلتُ "لـماذا تفعل ذلك؟"

"ماذا تريد؟"

"لماذا تتهرب مني؟"

"لماذا تلحق بي؟"

"هذا جدال لن يؤدي إلى شيء"

"إذا ما كنتَ تريد لأحد أن يسمع حكايتك فبإمكانـك أن ترويهـا الآن، أنا أسمع"

"حكايتي، وما أدراك بحكايتي؟"

"من لديه الفضول ليجري خلف شخص مثلي يعلم تماماً أنه يملك الكثير من المشاكل، إنما يريد أن يقارن بين حكايته وحكايتي"

كان هذا تحليلاً غريباً، ولكن ربما يكون على صواب، من يجري خلف المتاعب؟ ولكنني ابتسمتُ وقلتُ "ولماذا تتحمل عبئي دون مقابل؟ ألا تذكر، سر بسر؟"

سكتتَّ ثم بدأتَ تمشي، فقلتُ "سأتبعك لأتقصّى منزلك، فإذا كنتَ لا تريدني أن أعرفه تستطيع تغيير الطريق"

تابعتَ السير كأنك لم تسمع شيئاً، وبدأتُ أسير خلفك.

&&&

الفصل الرابع والخمسون

سرتُ خلفك طول الطريق، لم تنطق بأي كلمة، ولم تدخل أي دكان.

لم أنطق بأي كلمة أيضاً، وبقيتُ صابراً، لم نسر في طريق مرتين، لم تدخل ممرات لتشتتني، لم تختر طرقاً فرعية، كنتَ تسير في اتجاه واضح، وهدف معين.

وصلنا إلى سوق صغير، في الطوابق العلوية توجد شقق صغيرة، دخلتَ إحدى الأبواب، وصعدتَ السلالم.

بقيتُ واقفاً في الخارج، إلى جانبي الأيمن محل لبيع الأثاث المستعمل، إلى جانبي الأيسر منجرة.

لا يبدو المكان هادئاً أو مريحاً، عندها سمعت صوت نافذة تفتح من أعلى، كنتَ هناك تشير إليّ بالصعود.

دخلتُ الباب حيث السلالم، لقد كانت قديمة ومهترئة، أحتاج للكثير من الثقة، هل يعقل أنك تخفي لي مصيراً سيئاً في الأعلى؟

هل عليّ أن أصعد، أم أن أكتفي بما جرى اليوم؟ أستطيع العودة في يوم آخر، أستطيع أن أتأكد أنه منزلك.

ولكن... لقد قطعتُ العهد بأن أثق بك، هل سأخالفه في أقل من أسبوع؟ ولماذا؟

ألستَ من منحني هذه الثقة؟ ألستَ من منحني هذه السعادة؟ ألستَ السبب الأكبر في فرصتي الثانية؟

وماذا سأخسر؟ ما الذي جنيته إلى الآن سوى صداقتك؟ إذا ما كنتُ سأخسرها الآن فلا شيء آخر أخسره بعدها.

لا قلق، لا تردد، أنتَ هناك، وأنا قادم.

صعدتُ السلالم، كانت تؤدي إلى طابق ثان، هناك بوابتان عن اليمن والشمال، كانت البوابة الشمالية مفتوحة، فعلمتُ أنك أبقيتها كذلك من أجلي.

دخلت الباب، ورأيتُ الشقة لأول مرة، صالة صغيرة جداً تحوي مطبخاً صغيراً وأريكة وحيدة بتلفاز صغير أمامها.

هناك بابان، أحدهما للحمام، والآخر لغرفة النوم على ما أظن.

كان هذا كل المنزل، شقة صغيرة جداً، قديمة البناء، ولكنها على الأقل نظيفة.

نظرتَ إليّ وقلتَ "ليس هناك مخدرات في الشقة، بل إنني حتى لا أدخن"

يبدو أن الارتباك كان مايزال واضحاً عليّ رغم كل ما شحنتُ به نفسي من الشجاعة والثقة، لم أكن أحب أن تلحظ ذلك، ولكنك قوي الملاحظة جداً.

قلتَ بسخرية "كنتَ تريد أن تزور شقتي، هذه هي شقتي السعيدة، وأنت أول من يزورها، فماذا ترى؟"

سرتُ خطوتين إلى الداخل، ونظرتُ في خزائن المطبخ، يبدو أن معظمها فارغ، هناك فقط علبة للواصق طبية، وعلبة أخرى للأدوية المنومة.

أما الجدران فقد كانت ساكنة كئيبة، رغم أن الضوء يدخل الغرفة إلا أنه لا يضفي حيوية كافية على المكان.

قلتُ "ألا تعلق بعض الصور على الجدران على الأقل؟"

ضحكتَ وقلتَ "مثل ماذا؟"

"شخصية محببة"

"لا أظن أحداً مناسباً"

"صورك الشخصية"

"ها أنا هنا!"

"صور طبيعية!"

حدّقتَ بي تقول "غرفتك خالية من الصور أيضاً"

قلتُ بسرعة "إنها ليست غرفتي"

لم تعلق، قلتَ "هل تشرب الشاي أم القهوة؟"

"لا بأس بكوب من الشاي"

فتحتَ خزانة في المطبخ، أخذتَ منها إبريقاً ملأته بالماء ووضعته على النار، ثم حضّرتَ كوبين، وضعتَ فيهما ورقة الشاي، وفتحتَ علبة السكر، فكانت فارغة.

قلتَ "سأجلب السكر" واتجهتَ نحو الباب.

استوقفتك أقول "لا بأس، ليس مهماً"

ولكنك قلتَ "السكر في العلية، أستخدمها لتبقى هناك مساحة جيدة في الشقة، سأعود حالاً"

خرجتَ من الشقة وبقيتُ وحدي.

هذه اللحظة المناسبة للعبث هنا وهناك، رغم أنني أعلم أن هذا أمر سيء، إلا أنني لا أستطيع أن أخفي فضولي.

اتجهتُ فوراً إلى باب غرفة النوم، حيث كان القفل معطلاً والباب مفتوحاً، نظرتُ في الغرفة، لحظة شعرتُ فيها أن قلبي قد توقف، ولم أعد أتنفس، جفلتُ خوفاً، إنه منظر مريب.

لم يكن في الغرفة سوى سرير واحد، يقف خلفه مجسمان من القش مرسومان على الحائط بأكمله، إنه رجل وامرأه، يمدان يديهما نحو السرير.

كان حجمهما كبيراً، والأذرع طويلة ممتدة إلى الفراش بشكل غير متناسب، وملامحهما غير واضحة، عيون سوداء، شعر من الخيوط، ابتسامة حزينة، وألوان داكنة، كان منظرهما مخيفاً.

سمعتُ صوتك خلف ظهري تقول "لقد توفيا عندما كنت رضيعاً"

استدرتُ خلفي، لابد أن وجهي كان شديد البياض، وعيناي لا ترمشان أبداً، ولكنك تابعتَ قائلاً "لقد دخل المنزل لص، أطلق عليهما النار، ولم يلحظ وجودي، سرق ما حملته يداه، وغادر ليتركني أواجه مصيري، أو كما قيل لي"

لم أستطع أن أنطق بأي كلمة، فدخلتَ الغرفة ووضعتَ يدك في يد المرأة وتابعتَ قائلاً "نشأتُ في ميتم إلى أن بلغتُ الثامنة عشرة، كنتُ سعيداً جداً بالمغادرة، فلم يكن الميتم جيداً، لم يكن لديهم النقود الكافية، بل أظنهم قد سرقوا ما تبقى لي من النقود، وكانت معاملتهم كمعاملة المساجين المذنبين، ولا أذكر أبداً ما كان الذنب الذي اقترفته حتى أفقد والديّ"

بدأتُ أستعيد هدوئي، إنني أسمع حكاية محزنة، عليّ أن أستمع إليه جيداً، ولكنه نظر إلي مبتسماً وقال "هاذان والديّ، إنك أول من يلتقيهما"

لا أستطيع أن أصف شعوري حينها، أشعر بالموت يحيط بالغرفة، ربما ظننت أنه مختل عقلياً، ولكنه لا يبدو كذلك، ربما كان جرحه أعمق من أن أتصوره، إنه يبتسم أمامهما وكأن شيئاً لم يكن!

قلتَ "ظننتُ أنك ربما تفهمني، فأنت لا تعيش مع والديك"

لهذا جعلتني أدخل المنزل، لقد أردت أن أتعرف إلى والديك، آسف أن أخيب ظنك، طأطأتُ رأسي قائلاً "والدي... على قيد الحياة"

بدت الدهشة واضحة عليك، فتابعتُ أوضح "لقد... غادرا"

"فلماذا تعيش مع غيرهما؟"

تنهدتُّ أحاول أن أشرح الأمر ولا أشرحه "عليّ أن أسكن معهما قانونياً، إذا ما تركتهما فسأُزجّ في السجن"

لم تسأل شيئاً، ولم أكمل الحديث، كان صوت الماء يغلي في الإناء واضحاً خلال الصمت، فاتجهتَ إلى المطبخ، وأكملتَ تحضير الشاي.

خرجتُ من الغرفة ألتقط أنفاسي لأول مرة خلال خمس دقائق، ما يزال قلبي ينبض بشدة، كيف يستطيع أن ينام يومياً بين تلك الأذرع؟

تذكرتُ حينها أنك لا تنام إلا بالدواء، ألم يعد ذلك منطقياً؟ لابد أن تصاب بالأرق في تلك الغرفة.

أكملتَ تحضير الشاي، وجلبتَ إلي كأسي، احتسيتُ منه القليل أنظر إلى التلفاز.

أمسكتَ اللاسلكي وفتحته.

خطر ببالي فوراً أن أول محطة سيفتح عليها التلفاز هي المحطة التي تشاهدها دائماً، فأمعنتُ النظر، وعرفتُ المحطة، إنها محطة للأخبار.

هذا لا يتناسب أبداً مع شخصيتك، هذه أخبار مملة عالمية، تنقل الحروب والقتلى في معظم الأحيان، لابد أنك كنتَ تقلب بين المحطات قبل أن تغلق التلفاز، ومللتَ عند هذه المحطة.

قلّبتَ بين المحطات، فكانت هناك دعاية لمعجون أسنان، عندها سألتني "هل نمت أسنان العقل عندك؟"

أجبتُ "اثنان منها"

ابتسمتَ وقلتَ "لقد نمت أسناني كلها، وقد آلمتني كثيراً، ولكنني لم أملك النقود الكافية لنزعها كما يفعل معظم الناس" ثم تابعتَ قائلاً "هل تعلم، إن أسنان العقل تدعى مسببة المتاعب، فهي مؤلمة وتظهر متأخرة، ويلجأ معظم الناس إلى خلعها والتخلص منها، أظن أنني مثلها، فمعظم الناس يلقبونني بمسبب المتاعب، ويرجون التخلص مني، لذلك تحمّلتها رغم كل الألم، وقد نمت جميعها الآن"

لم أستطع أن أنطق بحرف واحد، هل ما سمعته كان مؤسفاً؟

ﮓﮔ

الفصل الخامس والخمسون

بدأ الشتاء، وهطل المطر، من بعده هطلت الثلوج، كنتُ أقضي معظم اليوم في الكتابة.

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

لقد بتنا نزور بعضنا، ونتبادل أطراف الحديث، حديث تلو الآخر، وما تزال حكايتك غامضة.

أمور تخشاها، أمور تبتعد عنها، مواقف تغضبك، وأخرى تتجنبها.

لست أدري إلى أين نذهب، وإلى أين سنصل، ولكنني سعيد، هناك إحساس ما يقودني إلى المتابعة، وأن أثق بك أكثر فأكثر.

ليس مهماً ما لا أعرف، المهم أنني أعرف ما لا يعرفه أحد، ويوماً ما ستتضح الصورة كاملة، أنا أكيد.

طويت الورقة، ثم نظرتُ في الغرفة، لقد اعتدتُّ عليها رغم أنني أعلم تماماً أنها ليست غرفتي.

لا يزال هناك احتمال ضئيل أن صاحبها قد غادرها إلى مكان آخر فحسب، ربما يعود يوماً.

لست أدري لماذا أقرر ذلك الآن، ولكنني بدأت أفتش الغرفة درجاً درجاً، وزاوية تلو أخرى، لعلي أجد صورة ما تدل عليه.

مضى يومي في البحث الدقيق، ولكن لا فائدة.

ليس هناك من أثر لأي صورة أو حتى رسمة لصاحب الغرفة، لقد تخلصا من كل أثر له! ما الذي يدفعهما إلى مسح كل ما يتعلق به إلى هذه الدرجة؟ ولكن الأدوات كلها مكانها، الصور فقط قد اختفت.

هل أسأل؟ هل يحق لي أن أفعل؟ لقد بتنا على علاقة طيبة على ما أظن، ولكن هل هي كافية للإجابة عن هذا السؤال؟

هل هو مهم إلى هذا الحد؟ هل أصبحا يعنيان لي الكثير؟

لم أتخذ قراراً، ولكن ما إن خرجتُ من الغرفة حتى رأيت الرائد ألين يجلس إليهما في الصالة.

الفصل السادس والخمسون

يبدو أن الانزعاج كان بادياً على وجهي، قال ألـين "مرحبـاً، لا تبدو سعيداً بلقائي"

لم أحاول أن أخفي انزعاجي، بل قلت بكل صراحة "ولماذا أسعد بلقاء من صوب رصاصتين مباشرتين إلى صدري؟"

أعلم أنها كانت مفاجأة لهما، ولكن ألين ابتسم وقـال "أظـن أنـه كان لدي السبب الوجيه لذلك"

"ويبدو أنك ندمت عليه"

"كنتُ أعلم أنك شاب ذكـي، علـى العمـوم لقـد حـضرتُ إلى هنـا لأقول شيئاً واحداً" نهض من الكرسي واتجه صوبي، قـال عنـدما بـات قريباً مني "ابتعد عن إبراهيم"

تفاجأتُ لما قال، ولكنني قلتُ على الفور "لماذا؟"

"الأمر كذلك، فقط ابتعد عنه"

"هل هو أمر من المحكمة؟"

لم يقل شيئاً، فكررتُ بصوت مرتفع "هل هو أمـر مـن المحكمـة أم لا؟"

"لا، إنها مصلحتك فحسب"

سكتُّ وقد ارتاح بالي قليلاً، ثم قلتُ "وماذا إذا لم أفعل؟"

"سيسبب لك المتاعب"

هدأ بالي، وقلتُ "سأحترم وجهة نظرك هذه، ولكنني أفعل ما أراه مناسباً"

"وجهة نظري هي المناسب الذي يجب أن تفعله"

"لا أقدر"

سكت الجميع، فقال ألين "هل هذا هو جوابك النهائي؟"

"لن أفعل"

استدار ألين وترك المنزل دون أن ينطق بأية كلمة، كما لم ينطقا أيضاً حيث كانا يعلمان أن لألين سلطة أكبر منهما عليّ، ومع ذلك لم يستطع ردعي عما أفعل.

ﮗﮘ

الفصل السابع والخمسون

عدتُّ إلى التدريب المكثف، فقد اقترب الدوري المحلـي، وكـان علي أن أواجه أفضل المنافسين من الجامعات المختلفة.

هذه المرة كانت نادية متحمسة كـثيراً، وكانـت تـرافقني معظـم الوقـت، وتـساعدني في التـدريبات، يبـدو أن أملـها كـبير في أن أفـوز وألتحق بالدوري الدولي.

فعـلاً تـدربت كـثيراً، وكنـتُ أعلـم أنـني سـأواجه الكـثير مـن المنافـسين المـاهرين، ربمـا لـن يكـون بمـستوى الـدوري الـدولي الـذي شاركت فيه مراراً، ولكن علي أن أكون حريصاً على التركيز والفوز.

بدأ الدوري، هذه المرة كان الرجل العجوز وامرأته يجلسان بـين الجمهور يشجعان، نادية وأنتَ أيضاً كنتما تضعان آمالاً كبيرة، أرجـو ألا أخيب أملكما.

كان علي أن أواجه عشرة منافسين، كل منهم سيكون قـد تخطـى مجموعتـه أيـضاً، وهـا أنـا الآن أقـف علـى عتبـة أول مبـاراة، في أول مجموعة.

بدأت المبارزة، وكان المنـافس قويـاً، يبـدو أن الحـظ لم يكـن إلى صالحي لأواجه صعوبة في أول مبـاراة، ولكـن سـرعان مـا اسـتطعت أن

أقلب الموازين إلى صالحي، وتفوقتُ عليه في النقاط، وأطلقت صفارة النهاية معلنة فوزي.

فرح الجميع بالفوز، وهرعوا إليّ مهنئين، ولكنني أعلم أن المشوار ما يزال في بدايته.

كل يوم احتفال، وكل يوم تشجيع، استمرت المنافسة ثلاثة أسابيع متتالية، وواجهت الكثير من الشبان الماهرين، إلى أن وصلت المبارزة الأخيرة، إنها المبارزة الحاسمة.

إذا ما فزت فإنني سأحظى بجائزة مالية لا يستهان بها، كما أنني سأنتقل إلى الدوري الدولي، وسأواجه أناساً أعرفهم منذ سنين.

وقفت في الحلبة أنظر إلى البعيد، حلمي بات قريباً، إنني أستعيد الكثير مما فقدت، ها أنا هنا الآن على عتبة النجاح.

ثم نظرت إلى الجمهور، الجميع يهتف لي، كثير ممن أعرف وممن لا أعرف، علي أن أبذل قصارى جهدي.

بدأت المبارزة، وقد كنتُ حذراً جداً، درست حركات منافسي لأتعرف على أسلوبه قبل المبادرة بضربة متهورة.

انتهى الشوط الأول على ذلك، وتجهزت للشوط الثاني، رغم أن الشوط الأول كان مملاً إلا أن هتاف الجمهور ما يزال قوياً.

بدأت المبارزة الحقيقية الآن، وتبادلنا اللكمات، لم يوجه أحدنا ضربة قاضية بعد، ويكاد الشوط ينتهي.

إذا ما انتهى الشوط دون ضربة قاضية فإن النقاط ستحسب، وأظن أنني سأفوز بالنقاط، فليس هناك داع لمجازفة الضربة القاضية، ولكن المهم الآن أن أكون حذراً من ضربته إليّ.

قارب الوقت على الانتهاء، بات استعداده لضربة قاضية أمراً أكيداً.

مر الوقت، لم يبق إلا دقيقة واحدة، لا فائدة، إنه مضطر لتوجيه ضربة قاضية حتى ولو كانت عشوائية.

في هذه الأثناء استطعتُ كسب بعض النقاط الإضافية، إلى أن وجه ضربته القاضية التي استطعت تجنبها، وأسقطته أرضاً، وأعلن الحكم فوزي في المباراة، بل فوزي بالدوري المحلي.

دوّى الهتاف في الملعب، وركض الجميع إليّ، وبدأت الاحتفالات المتتالية في المنزل وفي الجامعة، بل في أنحاء المدينة أيضاً.

بات الجميع يعرفني، وبتّ أملاً للكثيرين، هذا الإحساس الذي نسيته قد عاد أخيراً، ها أنا أقف بطلاً من جديد، ما أجمل هذا الشعور.

الفصل الثامن والخمسون

ما يزال هناك وقت للتحضير للدوري الدولي، فأخذت قسطاً من الراحة، واستمتعت بأوقاتي، وبالنقود التي حصلت عليها.

ذهبت معك ونادية إلى الملاهي عدة مرات، وتمشينا على الشاطئ، وتحدثنا كثيراً، وعندما ركضت نادية إلى المياه وحدها وقفتَ إلى جانبي تنظر في مياه البحر وقد غربت الشمس وسألتني "أما تزال مصراً على المتابعة؟"

قلتُ "أجل"

"حتى لو كلفك هذا حياتك؟"

أشرت بالإيجاب.

"كلما شاهدتك تبارز أيقنتُ أكثر أنني أريدك أن تعود سالماً أكثر من أن تعود منتصراً، لا أريدك أن تخسر حياتك"

نظرتَ إليّ بعيون حزينة، ولكنني طأطأتُ رأسي وقلتُ "ربما يكون الوقت متأخراً على ذلك"

طأطأتَ رأسك وقلتَ "آسف على أنانيتي"

قلتُ "على كل حال يبدو أن هناك مشاكل لا يمكن حلها"

"ربما لا أقدر على حل مشكلتك بنفسي، ولكنني لا أؤمن أن هناك مشكلة لا حل لها"

"فأين الحل؟"

"ما زلتُ أبحث عنه"

"لستَ مضطراً للحديث في هذا الأمر، لم نصبح صديقين حتى نحل مشاكل بعضنا"

"لو كنتُ قادراً على حل المشاكل لحللتُ مشكلتي أولاً"

"ربما يكون حل المشكلتين مشتركاً، من يدري"

80C3

الفصل التاسع والخمسون

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

لقد كنتُ سعيداً جداً بما سمعت، لقد بات لي مكان في قلبك بلا شك، ولم تعد تقوى على فراقي.

ولكنني آسف، لا أستطيع أن ألبي لك شيئاً كهذا، فلابد أن أتابع الطريق، خاصة أنني بت في القسم الأخير منه.

كما أننا لسنا مضطرين للحديث فيما لا نريد أن نكشفه بعد، فأنا أعلم تماماً أنك تحمل أسراراً لم أطّلع عليها، كما أؤكد لك أنك لا تعلم شيئاً عني.

مشكلتي... هل لها حل يا ترى؟ لم أطالبك يوماً أن تحل مشكلة وقعتُ فيها، علماً أنني أعرف أنك ستفعل إذا ما استطعتَ، ولكن أن أحملك ما لا تستطيع فهذا ما لن أفعل.

مشكلتي لا حل لها، حتى وإن قلتَ أنه لا مشكلة دون حل، فأنا أعلم أنه لا حل لها، لذلك لن أطالبك يوماً أن تبذل جهداً لمساعدتي، كما أظن أنني لا أستطيع تقديم العون لك، كل ما أردته أن نكون معاً، هذا كل ما أردته منذ البداية، فلماذا نُحمّل أنفسنا فوق استطاعتها؟

صحيح أن المشاكل كانت ما جمعنا في البداية، ولكن لم أكن أرى فيك حلاً لمشكلتي، بل كنتَ البداية التي أبدأ فيها طريقاً جديداً.

لا أدعي أنني نسيت الماضي، فلا أستطيع أن أنساه، حيث أنه يسير معي في كل خطوة، ولكن بداية جديدة هي كل ما أستطيع أن أفعله، وإلى جانبي سرتَ أنت، وحدك دون الجميع، وهذا كان يكفيني.

كل ما أريد أن أقوله أنني لا أريدك أن تحزن كلما شعرتَ بالضعف أمام مشكلتي، فلستَ المكلف بحلها، لم ولن تكون كذلك، كن فقط إلى جانبي، أكن سعيداً.

الفصل الستون

صرفتُ الكثير من المال دون أن أدري، وبدأتُ أشعر أنه يتوجب علي أن أقتصد فيما أصرف، فهذا المال غير مستمر، إنه مجرد مكافأة وحيدة.

لم يكن هذا القرار سهلاً ولا جميلاً، فقد عدتُ إلى إحساس الحياة المترفة فترة وجيزة، والآن أعلم تماماً أنه مجرد حلم كان في الماضي.

رغم كل ما صرفتُ لم يتدخلا فيما أفعل، فقد كانت قناعتهما أنني جلبت المال بجهد فردي، ويحق لي أن أتصرف فيه كما يحلو لي.

عندما أفكر في الأمر الآن أظن أنه كان يتوجب عليهما أن ينصحاني ألا أكثر من الصرف على اللهو، ولكنني أعلم أنني لم أكن لأستمع إليهما.

في الأيام التالية لم أعد أراك كثيراً، بتُّ غالباً ما أرى نادية وحدها أيضاً.

حتى أن هاتفك كان مغلقاً معظم الأوقات، وقد تغيبتَ عن الكثير من المحاضرات، هل بتَّ تعمل عملاً إضافياً؟

إذا كنتَ تحتاج المال فأنا لدي المال الكافي، لقد صرفته في اللهو هنا وهناك، كان من الأجدر بي أن أصرفه على ما هو أهم.

ولكنني عندما اقترحتُ عليك ذلك أجبتَ بكل بساطة "المال لا ينقصني، أنا بخير"

لقد بتَّ أكثر هدوءاً، هناك تغير ما لا تخبر به أحداً، حتى نادية باتت تتساءل عمّا تفعل.

لم أعد قادراً على زيارتك في المنزل كثيراً، ولسبب غريب أشعر أنك لا تعمل، بل ربما تركتَ عملك نهائياً، أنت لستَ مرهقاً، الهدوء يحيطك بشكل غريب.

زرتك مرة في المنزل، وحاولتُ أن أسألك عما تفعل في أيامك هذه، فقلتُ "كيف حال عملك؟"

أجبتَ بكل بساطة "لقد تركته"

"هل بدأت عملاً آخر؟"

"كلا"

"إذن، كيف تحصل على المال؟"

"من مصدر جديد"

"وما هو؟"

سكتَّ، فقلتُ "لا تقل لي أنك تسرقه"

"كلا، لا تقلق"

"فمن أين لك بالمال؟"

"هناك من يقدمه لي"

"من؟"

"هل أنا مضطر للإجابة عن كل هذه الأسئلة؟"

"غريب وضعك، لقد تغيرت بعض الشيء"

"إلى الأسوأ؟"

"لم أقل ذلك، ولكنك تبدو متأملاً بعض الشيء، لم تعد كما كنت تلهو إلى جوارنا"

سكتَّ، عندها فتحتُ التلفاز ليكسر صمتنا، أول محطة فتح التلفاز عليها كانت محطة للأخبار.

لم تكن هذه أول مرة، ولا حتى الثانية التي أفتح فيها التلفاز لأرى أنك كنتَ تشاهد الأخبار، بل من الواضح أنك لا تشاهد غيرها.

كانت الأخبار تتحدث عن حرب متوقعة بين دولة بعيدة ودولتنا هذه، ولكنها في الوقت نفسه تطمئن السكان أن التوقعات ليست أكيدة، بل إن احتمالها ضئيل جداً.

سألتك "هل تؤمن فعلاً أننا سنشهد حرباً قادمة؟"

"ألا تؤمن بذلك؟"

"دولتنا قوية، هي من تقرر الحرب على الآخرين، ليس هناك خوف علينا"

سكتَّ، بعد أن حدقتَ في البعيد قلتَ "أكره الحروب"

يبدو أنك تذكر حرباً ما، ربما شهدتَ حرباً قبل أن تحضر إلى هنا، تابعتَ دون أن أسألك عن شيء "جرحي، سببه الحرب"

سكتَّ، لا يكفي ما سمعتُ، يجب أن تتحدث أكثر، إنك على وشك البوح بشيء كبير، قلتُ "أنا لم أتبرع بكليتي، لقد سُرقت مني"

نظرتَ متعجباً لما قلتُ، لقد بحتُ بسر كبير فجأة.

بقيتُ صامتاً أنتظر أن تتحدث، فأنت تعلم تماماً أن سراً بسر كان حديثنا.

ابتسمتَ ابتسامة خفيفة، ثم بدأتَ تقول "بعد أن خرجتُ من الميتم كان أسهل مكان أذهب إليه هو الجيش، شاركتُ في الحرب، ودخلت على امرأة في منزلها، قامت بمقاومتي، فخدشتني" وضعتَ يدك على أنفك وقلتَ "وما يزال جرحها ينزف إلى الآن"

لم يكن لدي ما أقول، حرب وجراح فجأة، لم أتصور أبداً أنك كنتَ في الجيش.

هدوء كبير أحاطنا، ماذا الآن؟ هل أعاود سؤالك عما تفعل؟ هل أسألك عن أيامك في الجيش؟ هل أحدثك عن نفسي؟ كل هذه الاحتمالات لم تكن واردة، الصمت فقط كان الخيار.

الفصل الحادي والستون

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً.

سر بسر قد أدى بنا في النهاية إلى الصمت المطبق، لم أكن أتصور فعلاً أنك قد كنت في الجيش، وقد شاركتَ في الحروب، وقد تركتْ فيك جرحاً لا يندمل.

هل هناك المزيد؟ هل ما زلت تخفي الكثير؟ وماذا تفعل الآن؟ بل ماذا سأفعل أنا في شأنك؟

هل ما زلتَ تبحث عن حل؟ ألا تدري أن هناك أموراً لا حل لها، متى ستكتشف تلك الحقيقة؟

بل ماذا يتوجب علي فعله الآن؟ أشعر بالضياع، أريد أن أعود أعواماً في الماضي، أريد أن أهرب من كل الحقائق.

لقد طلب ألين إلي أن أبتعد عنك، هل تسببتَ بالكثير من المتاعب؟ هل كانت رحلتك مع الجيش عصيبة؟

ماذا أفعل؟ ماذا سأقول عندما أقابلك في المرة القادمة؟ هل سأصمت؟

꧁꧂

الفصل الثاني والستون

تغيبتَ ثانية عن الدوام، وقابلتُ نادية في صالة التـدريب، بـت أقابلها أكثر مما أقابلك، بل ربما بت أقابلها أكثر مما تقابلها أنت.

باتت تسألني إذا ما رأيتك اليـوم، أو البارحـة، أو قبلـه، يبـدو أنها تشعر بالوحدة، إنها تفتقدك كثيراً.

تحدثنا قليلاً، فجأة قالتْ "حلمتُ الليلة أن إبراهيم قـد عـاد إلى الجيش"

تفاجأتُ وقلتُ "أنت تعلمين أنه كان في الجيش"

"والدي كان القائد على كتيبته"

لم أكن أتوقع ذلك فعلاً، قلتُ "إذن قابلتِه هناك"

"كلا، رأيته مـن قبـل عـدة مـرات، ولكننـا لم نتحـدث قبـل أن يلتحق بالجامعة، عندها كان قد انـسحب مـن الجـيش" ثـم قالـت "ألم تكن تعلم ذلك؟"

"علمتُ حديثاً أنـه كـان في الجـيش، ولكـنني أظـن أنـه لم يكـن سعيداً هناك"

"كلا لم يكن كذلك، وهو يكره الحديث عن تلك الفترة الزمنية"

بدا لي أنها تعرف الكثير عنه، ولكن كيف لي أن أعرف المزيد؟

هل أتابع الحديث، أنتظر منها بعض الزلات هنا وهناك؟ كم من الوقت سيستغرق ذلك؟

صدر صوت الصافرة معلناً بداية المباراة، فاستأذنت نادية، وركضتْ إلى ملعب كرة الطائرة.

ജ്ഞ

الفصل الثالث والستون

لقد تغيبتَ أربعة أيام متواصلة، وهاتفك مقفل، ولستَ في المنزل، أين أنت؟

لقد شغلتنا عليك كثيراً، بعثتُ إليك برسائل هاتفية لعلك تقرأ شيئاً منها، ووضعتُ ورقة تحت باب شقتك لعلك تسحبها وتقرأها، ولكن لا فائدة.

اختفيتَ، وكأنك تريد أن تختفي فجأة، هل كان يصعب عليك تبرير ما تفعل؟ إذا لم يكن لديك ما تقول لي فعلى الأقل قل شيئاً لنادية.

بدأ الثلج يتساقط، وبت أسأل أصحاب الدكاكين أسفل الشقة، لم يرك أحد تعود إلى المنزل، ولكنهم نصحوني أن أسأل عنك صاحب العمارة، فلابد أن تدفع إجار الشقة له.

بدأ الثلج يسقط بغزارة، مع ذلك كنتُ مصراً على القيام بزيارة قصيرة لصاحب العمارة.

كان منزله بعيداً، وصلتُ بصعوبة، بعد أن استقبلني أخبرني أنك بعثت إليه بنقود أجار الشهر الماضي قبل يومين، ولم تذكر شيئاً عن الخروج من الشقة على الإطلاق.

هذا يعني أنك تنوي العودة من حيثما أنت الآن، لابد أن تعود.

حاولتُ الاتصال بك ثانية، الهاتف مغلق.

عدتُّ إلى المنـزل، أحسستُ عندما دخلتُ أنني كنت أسير في عواصف ثلجية دون أن أدري، لم أشعر بذلك إلا عندما دخلتُ المنـزل الدافئ.

استبدلتُ ثيابي، وحاولتُ الاتصال بك مجدداً دون فائدة، فوضعتُ رأسي على الفراش، ونمتُ نوماً عميقاً.

୨୦ଓ

الفصل الرابع والستون

استيقظتُ في الصباح أشعر بألم في حلقي، يبدو أنني أصبتُ بالبرد بعد البارحة الحافل.

خرجتُ من المنزل إلى الجامعة، كان الجو هادئاً في الصباح، ولكنه بدأ يسوء مساء.

ذهبتُ إلى شقتك، جلستُ على السلالم أنتظرك، لابد أن تعود.

حاولتُ الاتصال بك، لا فائدة، الهاتف مغلق .

هل عليّ الاتصال بالشرطة؟ ولكنك قد دفعتَ الإجار قبل يومين، بل إنني آخر شخص ينوي الوقوف أمام شرطي، ذِكر اسمي في أي صفحات رسمية قد يسبب لي المتاعب.

رن هاتفي، نظرتُ إليه بسرعة ولكنك لم تكن المتصل، إنه المنزل، لقد قلقا علي، يبدو أن الوقت قد تأخر، بل يبدو أن هناك عاصفة ثلجية في الخارج.

وعدتهما أن أعود خلال وقت قصير، وأغلقتُ الهاتف، أتمنى لو تتصل.



بدأ جسدي يقشعر، أشعر أنني أغلي، بدأتُ أسعل بشدة، يبـدو أن وضعي قد ساء عن البارحة كثيراً، علي أن أعود إلى المنزل بسرعة.

حملتُ حقيبتي، ونزلتُ السلالم لأغادر، نظرتُ إلى الطريق فإذا بها عاصفة ثلجية تغطي المدينة، إنني لا أرى بضعة أمتار أمامي.

سعلتُ ثانية، بات سعالي مدوياً ومؤلماً، هل أستطيع العـودة إلى المنزل؟

فكرتُّ أن أنتظر قليلاً داخل البناية علّ العاصفة تهدأ، ولكـن لا يبدو لي أن هذا كان خياراً.

خطوتُ خطوتي الأولى للعودة إلى المنزل، فرأيتُ شخصاً يقترب، كان أنت.

الفصل الخامس والستون

لم أصدق ما أرى، في اللحظة التي لم أعد أفكر فيها بلقائك ظهرتَ لي فجأة.

نظرتَ إليّ بعيون حائرة، ماذا أفعل هنا، ولكنني ألقيتُ حقيبتي وأمسكت بك، لم أكن قادراً على إخراج صوت من حلقي، ولكنني قلتُ ببحة واضحة "لقد عدتَ"

يبدو أنك قد رأيتَ ما يقلقك، لقد ارتبتَ عندما نظرتَ في وجهي، ولمستَ جبيني وقلتَ "آدم، أنت محموم"

ابتسمتُ وقلتُ "أخيراً عدتَ"

أمسكتَ بي وقلتَ "ماذا تفعل؟ هيا ندخل إلى المنزل"

ولكنني أوقفتك وقلتُ "خذني إلى المشفى"

بدأتُ أفقد السيطرة على نفسي، لم أعد أقوى على الوقوف أكثر، أمسكتني بقوة وقلتَ "تمالك نفسك"

قلتُ بصوت خافت "المشفى..."

الفصل السادس والستون

كان لقاؤنا غريباً، نقلتني بسرعة إلى المشفى، كل ما أذكره أن الهواء كان بارداً جداً، وجسدي يغلي من الداخل، ويقشعر من الخارج.

لم تكن هناك أي حافلة في الطريق، ليست هناك مراكب، ولا رجل يسير على قدميه، كنا وحدنا، تحمل كتفي على كتفك، تقودني إلى أقرب طوارئ في المدينة.

وصلنا الطوارئ، واستلقيتُ على الفراش، كنتُ أشعر بضيق في نفسي، وألم في صدري، وكنتُ أسعل بشدة، وحرارتي مرتفعة.

بعد فحص سريع وأسئلة موجهة كان من الواضح أنني أعاني من ذات الرئة، ولكن الفحص أيضاً كشف عن ندب جراحية في صدري، السؤال التالي كان واضحاً "ما سبب هذه الندبة؟"

قلتُ "استئصال جزء من الرئة اليمنى"

أعلم أنك تفاجأتَ لذلك، فلم تكن كليتي هي الشيء الوحيد الذي فقدت، ولكن السؤال التالي كان الأدهى "وما هو سبب الاستئصال؟"

أجبتُ "عيار ناري"

لم تستطع أن تخفي اندهاشكَ، بينما سارع الطبيب بإكمال الإجراءات، وتم توصيل الأوكسوجين إلى الكمامة، ووضع المغذي

الوريدي الذي أضافوا إليه بعض الأدوية مباشرة، كما أظنهم قد سحبوا بعض العينات للفحص.

بدأت الأدوية تأخذ مفعولها، وبدأ الألم يختفي تدريجياً، وبدأتُ أستسلم للنوم.

كنتُ نائماً عندما دخل ألين الغرفة، وكنتَ إلى جانبي تجلس بهدوء إلى أن رأيته، وقفتَ مندهشاً تقول "ألين! ماذا تفعل هنا؟"

أجاب ألين "أطمئن عليه"

"هل تعرف آدم؟"

"أعرفه وأعرف كل شيء عنه، وأعرف أن وجوده إلى جانبك سيسبب له المتاعب"

يبدو أنك كنتَ تشعر بالذنب، فلم تستطع أن تدافع عن نفسك.

قال ألين "تريد أن تعرف ماذا أكون بالنسبة لآدم، أنا من صوب إلى صدره رصاصتين موجهتين، وقد نجا بأعجوبة"

نظرتَ إليه ولكنه تابع يقول "يبدو أننا لا نتغير، تركتُ الجيش كما تركتَه، نظن أننا سنصلح من حالنا، بل ربما نكفر عن ذنوبنا، ولكننا لا نستطيع إلا أن نرتكب ما اعتدنا على ارتكابه"

قلتَ "دعني أخمّن، أنت هنا تحاول أن تكفر عن ذنبك بمساعدته"

"شيء من هذا القبيل"

"وأنا أقف عقبة في طريقك وطريقه"

"هذا صحيح"

سكتُّ، فقال ألين "إذا كنت تحب أن يكون آدم بخير، فاخرج من حياته، لقد أعطيته فرصة لحياة جديدة بصعوبة، فلا تضيع فرصته الوحيدة"

يبدو أنكما تفهمان الحديث الذي يدور بينكما بعمق، فبعد صمت قصير قررتَ أن تنصاع لاقتراح ألين، وحملتَ معطفك من الأريكة المقابلة لسريري، واعتذرتَ وسرتَ لتغادر.

أمسكتُ قميصك أستوقفك، نظرتَ إليّ وقد كنتَ تظن أنني غارق في النوم، ولكنني قلتُ "أنا لم أتخلّ عنك بهذه السهولة"

بقيتَ تنظر إلى الجدية في عيوني، ثم جلستَ على الكرسي ثانية وقلتَ "لقد كنتُ في المعبد"

تعجبتُ لما سمعت، في المعبد! طول هذا الوقت.

قلتَ معللاً تصرفاتك الغريبة "خشيتُ أن تسخر مني إذا أخبرتك"

قلتُ "لن أسخر من شيء مما تفعل"

ولكنك قبضت يديك وقلتَ وأنت تحدق في الأرض، كأنك لم تستمع إليّ "أريد الغفران، بأي شكل وبأية وسيلة"

قلتُ بصوت هادئ "وهل غُفر لك؟"

"لا أعرف، لا أعرف"

ابتسمتُ وأمسكتُ بيدك وقلتُ "ما دمت تريد الغفران إلى هذه الدرجة، فلابد أن يغفر الله لك"

بدأت الدموع تنهار من عينيك، لم تستطع أن تحبسها أكثر.

تابعتَ البكاء إلى جانبي، وغادر ألين الغرفة بهدوء.

الفصل السابع والستون

اتصلتُ بهما وحضرا لإخراجي من المشفى، ودفع ما تطلبت الفحوصات والعلاجات، كما حملتُ معي علاجات منزلية.

سنفترق الآن، قلتُ "هل ستعود إلى المنزل؟"

أجبتَ "نعم"

"هل سأراك في الجامعة غداً؟"

"أجل"

لم تكن على طبيعتك، فقلتُ "هل أنت على ما يرام؟"

"أنا من يتوجب عليه طرح هذا السؤال"

"أنا بخير، لا تقلق عليّ"

بعد صمت قصير قلتَ "أنا آسف"

ابتسمتُ وقلتُ "ليس عليك أن تعتذر عن اليوم، ولكنني أقبل اعتذار انقطاع أخبارك عنا طول الوقت"

قلتَ وكأنك لم تسمع ما قلتُ "آدم، أنا لا أستطيع مساعدتك"

قلتُ "لم أطلب منك المساعدة"

نظرتَ إليّ فقلتُ "رغم أنك قدمت المساعدة منذ زمن"

"ليس هناك ما أقدمه لك، كما أنه ليس هناك ما تقدمه لي"

"كنتُ أعلم ذلك منذ البداية"

"فلماذا انتظرتني؟"

في لحظة كهذه كان عليّ أن أجيب جواباً مختصراً وشاملاً، قلتُ "لقد اشتقت إليك"

لم تتغير ملامحك، بقيتَ تحدق بي بالعيون ذاتها، بتُّ أشك فعلاً أنك تسمع ما أقول، أنت فقط تفكر فيما تريد أن تسأل بعد، ولكنك أنهيتَ الحديث وقلتَ "أراك غداً"

ﮓﮔ

الفصل الثامن والستون

إلى من ظننت أنني قد لا ألتقيه بعد أبداً.

أعلم أنك تبحث عن حل لمشكلتك، وتحاول أن تبذل كل ما في وسعك، وتتعلق بأرفع شعرة، ولكنني تفاجأت عندما علمت أنك بتّ تتردد على المعابد، وتبحث عن الغفران، ومازلتَ غير قانع إلى الآن.

فماذا تريد بعد؟ ما الذي سيرضيك؟

الآن وقد عدتَ، يجب أن تعاهدني أنك لن تهرب، وأنك ستكون صريحاً، وأننا سنتفهم كل ما يجري بيننا.

ليتني أستطيع أن أقول ذلك صراحة، مازلتُ أشعر أن الكلام على ورقي لن يصل إليك، ليتني أملك الجرأة.

هل هذا هو نفسه الاحساس الذي قادك للهروب، هل كنتُ سأفعل الشيء ذاته إذا ما كنتُ مكانك، هل كنتُ لأخبرك صراحة بما أفعل وما أفكر؟

وهل لهذا علاقة بمدى قوة العلاقة بيننا، أم أنه أمر طبيعي يحدث مع الجميع؟

سأراك غداً، هذا ما يهم الآن.

الفصل التاسع والستون

حل الصباح، ونهضتُّ من الفراش لأتجهز للخروج إلى الجامعة.

سمعا حركتي في الغرفة، فطرقا الباب ودخلا.

قلتُ مبتهجاً "صباح الخير"

قالا "صباح الخير" ثم تابعت "ماذا تفعل؟"

أجبتُ "أتجهز للخروج إلى الجامعة"

قال "أنت تمزح ولا شك، لقد خرجتَ البارحة من المشفى"

"أنا بخير"

قالت "لست كذلك، الطقس بارد في الخارج ولن أسمح لك بالخروج"

لم يكن هذا خياراً بالنسبة لي، ولكن كيف أستطيع أن أشرح لهما أنني أريد أن أذهب لألقى شخصاً تهرب من لقائي، قلتُ "يجب أن أذهب"

قال "من أجل الجامعة أم من أجل إبراهيم؟"

سكتّ، أعلم أن إجابتي لن ترضيهما، ولكنها قالت "مهما كان السبب، لن أسمح لك بالخروج، إذا ما كنتَ تريد لقاء إبراهيم فليحضر بنفسه إلى المنزل"

لم تكن فكرة سيئة، إذا لم أحضر إلى الجامعة اليوم هل سيحضر إلى منزلي؟ أحب أن يفعل، على الأقل عليه أن يطمئن علي، لقد مرضتُّ وأنا أنتظر عودته.

أعدتُّ حقيبتي إلى مكانها، وعدتُّ إلى الفراش، أطعتهما بكل بساطة، وانتظرتُ اتصالاً منك.

ﮋﮊ

الفصل السبعون

باتـت الـساعة الثالثـة مـساء، لقـد انتهـت المحاضـرات، ولم تتصل، ولم تحضر.

بدأتُ أشعر بانزعاج، ولكنني لم أكن لأتصل بنفسي، أريـدك أن تفعل ذلك.

الساعة الآن الرابعة، مازلتُ في الفراش أشعر بالملل، بل إنني لا أستطيع أن أفكر بأي شيء سوى الانتظار.

أخيراً رن جرس المنزل، نهضتُ من الفراش ثـم تمالكـتُ نفـسي وتمددت ثانية، عليك أن تعلم أنني متعب من المرض.

فتح الباب فكنتَ أنت أخـيراً، وإلى جانبـك قـدمت ناديـة أيـضاً تحمل وروداً.

فرحتُ بقـدومكما كـثيراً، وبـادرت ناديـة تقـول "سـلامتك، لم أتوقع أن تسوء حالتك إلى هذه الدرجة، تصورت أنه كان برداً بسيطاً"

شكرتُها وقلتُ "هذا ماحدث"

وضعتْ نادية الورود إلى جانبي، ثم قالت "والدتك لطيفة جـداً، سألتنا فور دخولنا عن العصير الذي نفضله، سـأذهب لأسـاعدها علـى تحضيره"

غادرت نادية الغرفة، وبتنا وحدنا، فقلتُ "لم تتصل"

قلتَ ببساطة "توقعت أنهما لن يسمحا لك بالخروج"

"كنتُ سأحزن كثيراً إذا لم تحضر"

"لم يكن خياراً"

جلستَ إلى جانبي وقلتَ "كيف حالك الآن؟"

"أفضل" ثم قلتُ "منذ متى تعرف ألين؟"

ابتسمتَ وقلتَ "منذ زمن، كنا في الجيش معاً"

"هل ترك الجيش كما فعلت؟"

"تركه قبلي، والتحق بالشرطة"

"فلماذا لم تفعل مثله؟"

"من الجيد أنني لم أفعل، فلم أر فيه تغييراً ملحوظاً" عندها قلتَ "لقد أطلق عليك النار أليس كذلك"

"لا أريد الخوض في هذا الموضوع، على الأقل ليس الآن"

دخلتْ نادية تقدم العصير وتقول "إن أمك لطيفة جداً، لقد أحببتها كثيراً"

لم أكن لأخبر نادية أن تلك المرأة ليست أمي، بل لا تجمعنا أي صلة قرابة، ابتسمتُ لإطرائها، وشربنا العصير.

لم يطيلا الزيارة، كانا يعلمان أنني أحتاج قسطاً من الراحة،

ولكن نادية قالت قبل أن تغادر "عليك أن تستعيد نشاطك بسرعة، فالدوري الدولي بات على الأبواب"

تفاجأتُ لذلك، ولكنك نظرتَ إليها وقلتَ "لقد أخبرتك ألا تذكري ذلك الآن"

قالت نادية "ولكننا رياضيان، ونعلم أن هذا الأمر مهم جداً"

نظرتْ نادية إليّ وقالت "سيبدأ بعد شهر ونصف من الآن"

بهذه السرعة! يجب علي أن أتدرب كثيراً.

قلتَ "عليك أن تستريح الآن، لا تفكر في الأمر كثيراً، لن تتدرب قبل أن تتحسن صحتك"

حمل كل منكما حقيبته، واتجهتما صوب الباب، عندها استوقفتك وسألتك "إبراهيم، هل كنتما صديقين؟"

توقفتَ ونظرتَ إليّ، فقلتُ "أعني ألين"

فكرتَ قليلاً ثم قلتَ "ليس تماماً، لا أظن ذلك"

وغادرتما.

꧁꧂

الفصل الحادي والسبعون

إلى من ظننت أنني لن ألتقيه بعد أبداً،

هل علمتَ لماذا سألتك عن ألين، وهل كنتما صديقين من قبل؟ هل شعرت أنني أجس نبض علاقتنا، وأحاول أن أفهم صلتك بي؟

عندما اختفيتَ، انتابني شعور أنك لست قريباً من أي شخص في هذه الدنيا، حتى مني أنا، ما زلتَ بعيداً، ولكنك عندما حضرتَ علمتُ أنه كان شعوراً ليس إلا، وما زلتَ هنا، وما زلتَ تراني، وما زلتَ تريد الخير لكلينا.

ليس مهماً ما تفعل، وما تفكر، المهم أن تكون أمامي، لا أحب الجفاء، لا أحب الوحدة، ولا أحب أن أفقد ما أملك.

أما عن الدوري الدولي، فأنا أعلم تماماً أنك بت ترفض الفكرة أكثر من أي وقت آخر، فأنا ألعب بكلية واحدة، ورئة قد انتزع جزء منها، وفوق ذلك أعاني من ذات الرئة الآن، أعلم تماماً أن ما أقوم به انتحار، ولكنني آسف، هذا قرار لا أشارك فيه أحداً حتى أنت.

ربما كان هذا عمر الجنون، ولكنني أعلم أن ما أقوم به هو الجنون، ولستَ غافلاً عن ذلك، ولكنني بحاجة ماسة للمنافسات، فالتخلي عنها والموت بالنسبة لي سيان.

الفصل الثاني والسبعون

مر أسبوع قضيته في المنزل، أظنني كنتُ محظوظاً أن مرضي لم يتأزم أكثر.

ذهبتُ إلى الجامعة، ولكنني لم أداوم في النادي قبل أسبوع آخر، حتى أضمن سلامة صحتي في هذه الأثناء.

ثم بدأتُ التدريب الجاد، وحرصتُ على الاستعداد الكامل، حيث أخذ مني كل وقتي وكل جهدي.

صحيح أنني أقابلك في الجامعة، ولكن لم يعد لدي الوقت لزيارتك في المنزل، بل أظنك ما تزال تداوم على المعابد بعد الجامعة.

ليتك تحصل على ما تريد، ولكنني لا أشعر أنك تفعل.

༄༅

الفصل الثالث والسبعون

بدأ الدوري الدولي، تصورتُ أنني سأكون متوتراً، ولكن عندما رأيتُ أناساً كنتُ أعرفهم في الماضي زال التوتر، إنني أعرفهم، وأعرف أسلوبهم، كما أعرف نقاط ضعفهم، إنهم المنافسون الذين أنافسهم كل مرة تقريباً.

تصافحنا، وتبادلنا أحاديث قصيرة، حرصتُ فيها ألا أذكر شيئاً عن هجرتي.

نادية كانت دائماً في مقدمة الجمهور، وغالباً ما كنتَ إلى جانبها.

طبعاً حضر كذلك الرجل وزوجته للتشجيع، كنتُ أقرأ في عيونهم نظرات الفخر والإعجاب.

بدأت المبارزة الأولى من أصل خمس مبارزات، وقد كانت بداية موفقة، حيث أنني كنت مستمتعاً باللعب، أذكر أياماً كانت الأسعد في حياتي.

انتهى الشوط الأول بفارق بسيط في النقاط، ولكننا كنا نعلم أن هذه المبارزة ستنتهي بضربة قاضية، ولن يكتفي أحدنا بالنقاط، وقد كانت الضربة القاضية من نصيبي، وفزت بالمبارزة.

كان هناك يوم أو يومان بين كل مبارزة وأخرى، حيث أن هناك مجموعات تتنافس بالتناوب، وعدتُ إلى التدريب الجدي من جديد.

حان موعد المبارزة الثانية، وتجمع الكثيرون للتشجيع، رأيتك بين الجمهور وقد كان هناك شاش أبيض حول أذنك اليمنى، والجهة اليمنى من وجهك.

ركضتُ إليك أسألك عما جرى، فابتسمتَ وقلتَ أنك قد أصبت بحروق بسيطة أثناء الطهو، وكل شيء على ما يرام.

صدقتُ حكايتك على الفور، وعدتُ إلى المبارزة.

كانت المبارزة جيدة، خصوصاً أن منافسي كان صديقاً قديماً لي، أذكر في العام قبل الماضي أننا تنافسنا على الميدالية في المبارزة النهائية.

استمتعتُ بالمبارزة كثيراً، وشعرتُ أنني حققت ما أردتُ الوصول إليه، هذا الشعور الذي استعدته أخيراً هو ما كنتُ أسعى إليه من المبارزات، أخيراً أنا هنا، أسعى إلى القمة.

فزتُ بالمبارزة، ولم يتبق لي سوى ثلاث مبارزات أخرى، والمبارزة التالية كانت في اليوم التالي على التوالي.

تجهزتُ للمبارزة، ووقفتُ في الحلبة، ونظرتُ في جمهوري، فكنتَ متأخراً.

حضرتَ في بداية الشوط الثاني، وما يزال الضماد حول وجهك، يبدو أنك تستبدله بين حين وآخر.

فزتُ بالمبارزة وتبقى لي مبارزتان فقط، الأخيرة وما قبلها، وكان لدي يوم للاستراحة قبلهما.

الفصل الرابع والسبعون

احتفلا بي كثيراً، واكتشفتُ أنني لم أجلس مع أحد منذ فترة، كان اجتماعاً سعيداً جداً.

لقد ابتعدتُ عن الجميع في الآونة الأخيرة، والجميع كان يقدّر أنني بحاجة إلى كل الوقت والجهد للتدريب.

خرجتُ من المنزل متجهاً إلى منزلك، أود أن نقضي وقتاً ممتعاً معاً، فلم نجلس وحدنا منذ فترة طويلة.

وصلتُ المنزل، ونظرت في النوافذ من الخارج، هناك آثار حريق.

ركضتُ إلى الشقة، فكان الباب مفتوحاً ومحروقاً، وكل ما في المنزل قد تحول إلى رماد.

دخلتُ المنزل، وتجولتُ فيه ببطء، لا أصدق ما أرى، لم تطأ قدمي سوى الرماد، المطبخ أسود، الصالة تحولت إلى رماد، غرفةالنوم مهترئة، والصورة على الجدار... إنها سوداء حولها آثار لمحاولات متكررة للتنظيف، ولكن بلا فائدة.

تخيلتك فقط تحاول تنظيف الجدار، ألا يكفي أنك تفتقد والديك إلى درجة كبيرة، كيف يحدث كل ذلك؟ بل كيف لا أدري به إلى الآن؟

طبعاً تذكرتُ الحروق على وجهك، كيف صدّقتُ حكاية سخيفة كالتي سردتها لي؟ أين كان عقلي حينها؟

نظرتُ حولي، كيف لك أن تصلح كل هذا؟ لم يتبق شيء

عندها كنتَ قد وصلت الباب، ورأيتني في الداخل، كنـتَ تحمـل بعض الرسائل وكيساً لطعام معلب.

لم أستطع التفوه بكلمة، دخلتَ بهدوء، ووضعتَ الأكيـاس علـى طاولات المطبخ المهترئة، ثم نظرتَ إلي بعيون هادئة وقلـتَ "هـل أنـت جائع؟"

ولكنني قلتُ "لماذا كـذبت علـيّ؟ كيـف تجعلـني أصـدق حكايـة سخيفة؟"

ابتسمتَ وقلتَ "الحرق حرق، أكـان مـن الموقـد أم... مـن المنـزل بكامله"

"لماذا لم تحضر إلى منزلي؟ كيف تبقى هنا؟"

"أنت مشغول كفاية"

"لستُ مشغولاً عنك"

"لقد حضرتَ الآن فقط، أنت مشغول"

أسكتني ما قـال، فقـد كـان محقـاً، والمنـزل كـان مفتوحـاً طـول الوقت، ولا يستطيع أن يخفي شيئاً مما جرى.

قلتَ ثانية "هناك بعض المعلبات، والعصير، تفضل"

بقيتُ واقفاً مكاني، فقلتَ "لا تفكر في الأمر، سأتدبر كل شيء"

"كيف؟"

"ألا تثق أنني أستطيع تدبر الأمر"

"تحتاج لمبلغ كبير جداً"

"أنا على ما يرام، سأتدبر الأمر"

اقتربتُ منك فإذا بي أرى ورقة بين أوراقك وقد كانت المحكمة مرسلها، وقلتُ "ما رأي صاحب العمارة بما جرى؟"

قلتَ ببساطة "يريد النقود"

"هل لجأ إلى المحكمة؟"

فتحتَ العلب وبدأتَ تأكل، وقلتَ "لابد من ذلك"

انزعجتُ وقلتُ "لا تتحدث وكأن شيئاً لم يكن، أخبرني ماذا ستفعل"

عندها لمحتُ ورقة كنتُ أعرف منظرها، إنها شركة لبيع الأعضاء، جفلتُ فقط لفكرة أنك تفكر في الأمر.

توقفتُ عن الجدال، وشردتُ في البعيد، فنظرتَ إليّ وقلتَ "ما الأمر؟"

أشرتُ إلى الورقة إلى جانبك وقلتُ بصوت منخفض "ما هذه؟"

نظرتَ إلى الورقة، إنها إعلان للشركة، فقلتَ ببساطة "كما ترى"

قلتُ "هل تفكر فعلاً في ذلك؟"

ابتسمتَ ابتسامة خفيفة وقلتَ "إنها نقود سريعة، ألا تظن ذلك"

لم أستطع أن أنطق بكلمة، ولكنك قلتَ ببساطة "سأقوم بالتبرع بجزء من الكبد، ولن تكون هناك مشكلة، فهو يعاود النمو من جديد، أسلوب سهل للحصول على مبلغ كبير من المال"

قلتُ بصوت ضعيف جداً "أنت لا تعني ذلك"

نظرتَ إليّ وقد كان وجهي قد بات أصفر بكل تأكيد، قلتَ "لا تقلق عليّ، سأكون على ما يرام"

أمسكتَ الأوراق وسرتَ لتنقلها إلى الغرفة، فأمسكتُ قميصك وقلتُ بصوت مختنق "أرجوك ألا تفعل"

بقيتَ واقفاً مكانك ولم تلتفت إليّ، فقلتُ "والدي كان تاجر أعضاء، وعندما أصيب بضائقة مالية قام ببيع كليتي رغماً عني"

لم أر تعابير وجهك، فلم تكن تنظر إليّ، ربما كان ذلك جيداً، حيث أنها أول مرة أنطق بها هذه الحقيقة، ولم أكن أحب ذلك.

تابعتُ قائلاً "لقد قاموا بتخديري من المنزل، وعندما استيقظتُ كان كل شيء قد انتهى، كنتُ في المنزل مع ندبة كبيرة على ظهري، ذهبتُ إلى إحدى العيادات لأتحقق الأمر، وقد أثبت أنني فقدت كليتي اليسرى"

بدأتُ أذرف الدموع، وتابعتُ "غادر والدي البلاد، فحملتُ

مسدساً كان في المنزل، وخرجتُ إلى أقرب مشفى، وقمتُ بإطلاق النار على ثلاثة أطباء، أوديتهم صرعى"

تابعتُ البكاء، ولم تلتفت إليّ بعد، بقيتَ صامتاً تفكر فيما سمعت، هذا كان كل ما لديّ، لهذا لا أريدك أن تقدم على الخوض في أمور كهذه.

أخيراً نطقتَ، قلتَ "عندما دخلتُ المنزل أثناء الحرب، كان فيه أم تحمل طفلها الرضيع، كان عمره لا يتجاوز السبعة أشهر، كانت أوامر الجيش أن نبيد المنازل بمن فيها.

دخلتُ منزلها، وعبثت فيه، بدأتْ تبدي بعض المقاومة، فأخذتُ طفلها الرضيع من بين ذراعيها، وصوبتُ إليه رصاصتين في صدره، فمات من فوره.

جنّ جنونها، وهجمتْ علي لتضربني، لم تتمكن سوى من خدشي هذا الجرح البسيط، وقالت شيئاً عن عدل الله، ثم أطلقتُ عليها النار، فسقطت من فورها"

تركتُ قميصك، فاتجهتَ فوراً إلى علبة اللاصق الطبي، واستبدلته على الجرح الذي كان ينزف بشدة.

هذه كانت حياتك أنت وألين، يبدو أنكما حملتما المأساة وخرجتما متأخرين من صفوف الجيش.

هذا هو ما تحاول نسيانه، هذا هو ما تحاول أن تستغفر عنه، هذا هو ما حرمك النوم، هذا هو.

لم يعد لدي ما أقول، وأظن أنك أيضاً قد لعبتَ آخر أوراقك، ولكنني ما أزال أقف أمام هذه الأوراق، أعاهد نفسي ألا أسمح لك أن تدخل متاهاتها.

قلتُ "أظن أنني أستطيع تسديد المال"

نظرتَ إليّ فقلتُ "امهلني حتى المباراة الأخيرة، سأحصل على مبلغ كبير من المال، تستطيع أن تصلح به الشقة"

قلتَ "لست مضطراً لفعل ذلك"

"عدني فقط أنك لن تبيع شيئاً قبل ذلك"

سكتّ، وطأطأتَ رأسك، فقلتُ بحزم "عدني"

قلتَ أخيراً "حسناً أعدك، إلى آخر مباراة فقط"

"إلى آخر مباراة"

ﷺ

الفصل الخامس والسبعون

عرضتُ عليك النوم في منزلي، ولكنك كنـتَ تـذهب إلى المعابـد، ولم تقبل دعوتي، حيث أن غرفتي صغيرة، وأمامي مباراتان مهمتان.

تركتك وما تشاء، المهم الآن أنك تنتظر مباراتي.

بات لـديّ هـدف كـبير أحققـه، لم تعـد المبـاراة الأخـيرة هـدفي وحدي، إنـها هدفك أيضاً.

لقد بات الفوز يعني لي الكـثير، فلـن أقبـل أن تبيـع إظفـراً مـن أظافرك مقابل المال وأنا حي أرزق.

تجهـزتُ للمبـارزة، إنهـا قبـل الأخـيرة، كـان المنـافس زمـيلاً سابقاً، لقد عدتُ إلى أيام كنت أعشقها، ولكـن الآن لـدي مـا هـو أهـم، وعليّ أن أركز كثيراً.

لم تكـن بـين صـفوف المـشجعين، ولكـنني أعلـم أن لـديك سـبباً وجيهاً لذلك، لابأس، المهم أنك وعدتَ أن تنتظر.

بدأت المبارزة، كان الحذر يـسيطر عليهـا، فكلانـا كـان يعـرف أسلوب الآخر، ونقاط القوة والضعف فيه.

شعرتُ أن الشوط كـان طـويلاً، التقطـتُ أنفاسـي عنـدما سمعـتُ صافرة الشوط الأول، استراحة قصيرة كانت أمراً مهماً.

عدنا إلى الحلبة، أظن أنني كنتُ أهدأ منه، وهذا ساعدني على أن أقلب مجرى المباراة لصالحي، وقد فزتُ في عدد النقاط، بدون ضربة قاضية.

ꙮ

الفصل السادس والسبعون

بقيت مباراة واحدة، مباراة وأحقق حلمي، مباراة وأحل مشكلتك.

اتجهتُ إلى منزلك، كان على حاله ولم تكن فيه، شيء واحد كان ملحوظاً، لقد حاولتَ تنظيف الصورة على الجدار مجدداً.

هناك عمل كثير في هذه الشقة، إنها تحتاج للكثير من المال والوقت لتعود كما كانت.

كذلك الصورة، إنها تحتاج إلى الكثير من التنظيف.

أمسكتُ الممسحة، وبدأتُ أحاول تنظيف الصورة، لعلي أساعد.

❧

الفصل السابع والسبعون

لم تعد إلى المنزل، ولم أقابلك ذلك اليوم، بل اكتشفتُ أنني كنتُ أجهل كل ما يدور حولي، حيث وقفتُ على الحلبة في مباراتي الأخيرة، وكان عدد الجمهور قد نقص إلى حد ملحوظ.

لم تحضر، ونادية لم تحضر أيضاً، عدد الجمهور كان قليلاً، شعرتُ لحظتها أن المباراة ستؤجل بطريقة أو بأخرى.

استعداد، وقبل صافرة البداية صدر صوت مخيف في جميع الأرجاء، إنه صوت إنذار أسمعه لأول مرة، بل سمعته من قبل في شاشات التلفاز فقط.

إنه إنذار لجميع الناس أن يعودوا إلى منازلهم ولا يخرجوا منها، إنه الإنذار الأكثر ذعراً في قلوب الناس.

انفض الجميع، وهرعا إليّ ليعيداني إلى المنزل ما أزال مندهشاً مما يجري، إنها مباراتي الأخيرة، إنه حلمي، إنني هنا، ولكن في لحظات سحباني إلى المنزل، إنها الحرب.

الفصل الثامن والسبعون

لقد كنتَ تعلم ذلك أكثر مني، لقد توقعتَ اندلاع الحرب القريبة بينما كنتُ جاهلاً، كيف لي أن أغفل عن شيء مهم كهذا، بل ماذا سيحل بنا الآن؟

وأين أنت؟ ليس لديك منزل تعود إليه، هل ما زلتَ في المعبد؟ وأي معبد كنتَ ترتاد؟ إنني لا أدري.

يبدو أنّ هناك الكثير من الأمور التي أجهلها، لماذا عليّ أن أنتبه إليها جميعاً في آن واحد؟

لماذا عليّ أن أهرب من مدينة إلى مدينة أخرى وأعاني فيها حرباً؟ هذه ليست مدينتي، وهؤلاء ليسوا عائلتي، إنني لا أملك شيئاً هنا.

أخيراً اضطررت لمشاهدة الأخبار على التلفاز، علّي أفهم شيئاً مما يجري، كل التحذيرات كانت تعرض لحظة بلحظة، الخروج من المنازل ممنوع، استقبال أحد من خارج المنزل ممنوع، فتح النوافذ ممنوع، علينا إغلاق كل شيء بإحكام، بل هناك بعض المناطق التي نزل أهلها إلى الخنادق!

لم أكن قد شهدتُ حرباً من قبل، ولم أكن أعرف الرعب الحقيقي لها، كيف لنا أن نتصرف؟ وهل سنعيش؟

حاولتُ الاتصال بك هاتفياً، ولكن هاتفك مغلـق، لم تكـن ناديـة أيضاً تحضر مباراتي، هذا يعـني أنهـا كانـت تعلـم بمـا سـيجري دون أدنى شك، فوالدها عسكري.

مع كل هذا التوتر كان من الغريب أن التلفاز لا يعرض شيئاً عـن عدونا، من هو؟ ولماذا يغزونا؟ وماذا سيحل بنا؟

هل هم على الحدود أم أنهم قد دخلوا البلاد؟

هل ينوون إبادتنا، أم استعبادنا؟

لستُ أدري، بل ليس هناك أحـد يجيـب عـن هـذه التـساؤلات، التي أعلم أنها تساؤلات السكان جميعاً.

ابقـوا في المنـازل، عـزل تـام، ومـاذا بعـد؟ هـل سـيطلبون منـا المشاركة في القتال؟ ولماذا أفعل؟ أنا لا أنتمي إلى هذا المكان.

رن هاتفي، أجبته فإذا به ألين "آدم، هل أنت على ما يرام؟"

قلتُ "أنا بخير، ماذا يجري؟"

"لقد بدأت الحرب، ويجب أن نغادر"

"نغادر إلى أين؟ التجول ممنوع"

"اتـرك الأمـر لـي، سنـسافر إلى الدولـة المجـاورة، تجهـزوا لتسافروا معاً"

"هل أستطيع أن أخبر إبراهيم أيضاً ليسافر معنا؟"

سكتَ ألين قليلاً ثم قال "فقط إبراهيم، لا أفضل أعداداً كبيرة"

"ومتى سنغادر؟"

"تجهزوا وانتظروا مكالمة مني، سيكون الأمر سراً"

أغلق السماعة، يبدو أن الأمر جاد، لماذا وضعني في هذه المدينة إذا ما كان يعلم أن كل هذا سيحدث.

علي الآن أن أتصل بإبراهيم، ولكن هاتفه ما يزال مغلقاً.

༄༅

الفصل التاسع والسبعون

بدأت أشعر بتـوتر، لم أسـتطع التحـدث إليـك، وبـدآ يجهـزان الحقائب للمغادرة، وسيتصل ألين في أي لحظة.

علي أن ألقاك، علي أن أخبرك، عليك أن تغادر معنا، لا أريـدك أن تعاني الحرب ثانية.

ماذا أفعل؟ الوقت ليس في صالحي، ووضع البلاد في تدهور.

لم أستطع تمالك نفسي، فخرجتُ من المنزل رغم معارضتهما لي بشدة، واتجهتُ إلى منزلك.

كيف كنتُ أفكر؟ منزلك أكلته النيران، لن تكون هناك، فعلاً لم تكن هناك، هل بقيتَ في المعابد؟ وأي معبد؟

لم يكن لدي خيار سوى الإسـراع إلى أقـرب معبـد عـن منزلـك، لعلي أجدك هناك.

لم يكـن هنـاك أحـد في الطريـق غـيري، ركـضتُّ بـسرعة إلى أن وصلتُ أقرب معبد، فتحتُ الباب بسرعة، فكان الجـو هادئـاً، وكنـتَ راكعاً في منتصف القاعة.

ما أدهشني هو الملابس السوداء التي كنتَ ترتديها، نظرتَ إلـيّ بعيون حزينة، ثم نهضتَ.

بعد أن امتصصتُ كل ما رأيت، اقتربتُ منك ببطء.

وقفتُ أمامك مباشرة، وقد كنتَ قد انضممت إلى صفوف الرهبان، هل هذا ما كنتَ ترجوه؟ هل وجدتَ الخلاص الذي كنتَ تبحث عنه؟

شيء واحد لم يتغير، اللاصق الطبي على أنفك، ما يزال هناك، ونظرة حزينة في عينيك، ما تزال كما أنت.

قلتَ "أهلاً بك"

تذكرتُ ما جئتُ من أجله، فقلتُ بسرعة "إبراهيم، سنغادر البلاد في أية لحظة، أريدك أن تتجهز بسرعة"

قلتَ "نغادر! إلى أين؟"

"لستُ أدري، أي بلاد مجاورة، تجهز بسرعة"

بقيتَ صامتاً مطأطئ الرأس، قلتُ منزعجاً "هيا، ليس لدينا متسع من الوقت"

ولكنك قلتَ "هل تريدني أن أهرب؟"

أمسكتُ ذراعك بقوة وقلتُ "لا أريدك أن تعاني الحرب ثانية"

ولكنك قلتَ "أعاني! أنا لم أكن من يعاني، لقد سببتُ الكثير من المعاناة لهؤلاء، لا أستطيع أن أهرب"

"ماذا تنوي أن تفعل؟ أن تبقى واقفاً هنا حتى يقتلوك؟ هل هذا ما سيريحك؟"

"لستُ أدري، لم أعد أعرف ما أريد، ولكن كل ما أعرفـه الآن أن الهرب مما فعلتُ هو آخر ما أريد"

"إنه مكان آمن، لستَ تهرب من شيء"

أشرتَ بالنفي وقلتَ "إنه الهرب بعينه، أنت لا تملك ما تفعلـه هنا، تستطيع المغادرة، أما أنا... فوضعي مختلف"

"كيف تقول ذلك؟! لقد ركضتُّ إلى هنا بأقصى سرعة! لقد خالفتُ منع التجول لأن هاتفك لا يعمل! لقد ذهبتُ إلى منزلك فلم تكن هناك، فبحثتُ عنك في المعابد! هل هذا ما ألقاه من إجابة! هذا ليس الوقت المناسب للكلام، المهم أن نبتعد من هنا"

"بل إن نقاشنا هذا قد انتهى، ولن أغادر مهما كلف الثمن"

تركتُ يدك يائساً من إقناعك، فقلتَ "إني جد شاكر لما تفعل، ولكن عليك العودة إلى منزلك بسرعة"

رفعتَ القلادة التي كانت حول عنقك، إنها ذات القلادة التي قدمتها لي من قبل، ميزتها جيداً برسمة القارب.

قدمتَها إليّ وأنت تقول "عدني أنك ستعود عندما تنتهي الحرب"

نظرتُ إلى القلادة بين يديك، حدقتُ فيها جيداً ثم قلتُ "آسف، لا أستطيع أن أعدك بذلك"

تركتُ القلادة في يدك، وغادرتُ المكان.

الفصل الثمانون

أحمق! كيف تفكر بهذه الطريقة؟ هل تريد أن تموت؟

إذا ما علم أحدهم أنك كنت في الحرب الماضية فإنها النهاية، هل هذا ما يرضيك؟

لقد حصلتُ على فرصة جديدة، فلماذا لا تريد أن تحظى بفرصة؟

جهزتُ أمتعتي، لستُ أدري ما آخذ وما أترك، لم يكن هناك الكثير مما هو خاصتي، كل ما في الغرفة كان هنا قبل أن أحضر.

فكرتُ في الأمر، ربما كان عليهما أن يحضّرا حاجياتي، أليست هذه أمتعة ولدهما.

دخلتِ الغرفة، فرأتني لا أدري ماذا أحمل، فقالت "لا تفكر كثيراً، احمل ما هو ضروري، قد نغادر في أية لحظة"

ولكنني قلتُ "أفكر لو أنكِ قمت بهذا العمل عوضاً عني"

"لماذا؟"

"هذه الحاجيات مهمة بالنسبة لك أكثر مني، ربما تحبين أن تحتفظي بشيء منها"

جلستْ على الفراش، ونظرتْ إليّ وقالت "بل اختر ما تشاء، فلم تكن هذه الحاجيات ملكاً لأحد"

نظرتُ إليها متعجباً، فقالت "لم يسكن هذه الغرفة أحد"

قلتُ "ألم يكن ولدك يسكن هنا؟"

"تمنيت أن يكون، ولكنه لم يكن أبداً"

لم يكن لدي ما أقول، كنت أظن أن صاحب الغرفة قد غادر أو توفي، وها أنا الآن أشعر بفراغ كبير في الغرفة.

قالت "لقد كنتُ أغيّر فيها كل عام، كما لو كان قد ولد منذ عشرين عاماً، الثياب، الكتب، كل الحاجيات، أنا سعيدة أن أحدهم استخدمها"

كل ما استطعتُ قوله "أنا آسف"

"ليس عليك أن تعتذر، خذ ما تحب، فأنت ولدي الآن"

الفصل الحادي والثمانون

اتصل ألين بعد فترة وجيزة، وعين المكان والزمان الذي نلتقي فيه، كنتُ أظن أننا المغادرون الوحيدون، أو على الأقل عشرة آخرون، ولكن العدد كان كبيراً، ما يقارب المئتين.

لم تحضر، لقد كنتَ جاداً فعلاً، لم أكن لأغير قرارك، ولكن... هل سأراك ثانية؟

هذه هي الحروب، تفرق الجميع، أريد أن أكسر هذه القاعدة ولكنني أشعر بالضعف، لا أستطيع أن أشارك في حرب لا أمت لها بصلة، ولماذا أفعل؟ أنت لديك الدافع الكبير لذلك، أما أنا فلا أنتمي هنا.

تجهزتْ الحافلات، ستغادر إلى بلاد مجاورة محايدة، ولكن ماذا بعد ذلك؟

ربما كان لألين معارف هناك، ربما سيساعدنا، ولكن ألم يكن ألين ممن اشترك في الحرب، ألا يهرب منها؟ أم أنه عزم على إنقاذي فحسب؟

ولماذا يضعني في عائلة تعاني من مشاكل نفسية؟ غرفة لولد لم يولد! أشعر أنني ألعب دوراً سخيفاً في العائلة.

لم أعد أريد أن أفكر، كم مـرة علـيّ أن أبـدأ حيـاة جديـدة؟ لقـد كانت حياتي جميلة هنا، لماذا عليها أن تنتهي هكذا؟

تحركـتْ الحافلـة بـسرعة، لم أشـعر إلا وأنـا أنظـر إلى المدينـة تبتعد، وداعاً يا أيامي الجميلة، وداعاً.

لحظتها بدأت أسناني تؤلمني، إنه... ضرس العقل!

؊؋

الجزء الثاني

على لسان إبراهيم

الفصل الثاني والثمانون

بقيتُ في المعبد أنظر إلى قلادتي، هل لدي ما تبقى في هذه الدنيا؟ هل انفصلتُ عنها نهائياً؟

سمعتُ صوت الباب يفتح، نظرتُ خلفي فإذا بها نادية.

دخلتْ تقول "لقد رفضتَ المغادرة أليس كذلك؟"

قلتُ "نعم، ألن تغادري أنتِ؟ المكان بات خطيراً"

"لقد بعثني والدي، إنه فخور أنك لم تهرب"

أشحت برأسي، إن إطراءه كان آخر ما أريد، فتابعتْ تقول "إنه يطلب إليك أن تنضم إليه، البلاد بحاجة ماسة إلى كل مقاتل"

لم أتردد في الإجابة لحظة "آسف، لن أفعل ذلك، لم أبق هنا للقتال"

"فماذا تفعل إذن؟"

لم يكن لدي جواب تفهمه نادية، كل ما استطعتُ قوله كان "لا أريد أن أقتل أحداً"

انفعلتْ نادية تقول "ولكنهم هنا ليقتلونا!"

ابتسمتُ وقلتُ "كما قمنا بقتلهم من قبل"

"هل تريد أن يقتلوني؟"

نظرتُ إلى نادية بعيون حزينة، واقتربتُ منها وقلتُ "أما أنتِ فعليك أن تغادري، هذا كل ما أستطيع تقديمه لك"

"سأغادر، ولكن لأن والدي طلب إليّ ذلك، أما أنت فوضعك بات غريباً"

"ربما"

"لقد توقفتُ هنا لأسلمك الرسالة فقط، البلاد بحاجة إليك، فلا تقم بخيانتها في أصعب أوقاتها"

لم تكن هذه الكلمات سهلة أبداً، ولكنها أيضاً لم تكن تفهم معناها.

غادرتْ نادية المعبد، بمغادرتها أعلم أنها غادرت البلاد، لم يبق أحد، نادية وآدم في أمان، وأنا هنا لأدفع ثمن ما فعلتُ، فهل أنا راضٍ؟

ﮧﮨ

الفصل الثالث والثمانون

مضتْ ساعات، والهدوء يخيم على المكان، ماذا أنتظر؟ ألم يدخلوا البلاد بعد؟

مضحك ما أقول، إذا ما دخلوا البلاد فسيعلم الجميع ذلك، وسيكون وقعهم مدوياً بلا شك، وسيأكلون الأخضر واليابس.

أقل ما في الأمر أنهم سيفعلون ما فعلناه بهم، سيقتلون الناس، ويهدمون البيوت، ويحرقون الأشجار.

ستُسفك الدماء، وستنهال في الطرقات، وستصبح المدينة حمراء بلا شك.

هل أردتُ أن أرى ذلك المنظر؟ كلا، ولكن هذا ما اقترفته، ليتني أدفع ثمنه وحدي، ولم أعرض بلادي لمثل ذلك.

لا أريد أن يحصل ذلك، ليتني تمردتُ منذ البداية، ليتني فكرت، ليتني تصرفت، لم أكن لأقف هذا الموقف، أنا المذنب، أنا السبب.

يا إلهي، ماذا عليّ أن أفعل؟ أن أدافع عن البلاد لأحمي أهلها من شر مقدم؟ أم أن أجلس هنا أنتظر الدمار؟ لم أعد أدري، لم أعد أعرف ما أفعل!

لم أقع في حيرة كهذه في حياتي، كـل المـشاعر تنتـابني، ذنـب، خوف، حزن، متى سأرتاح؟

متى ينتهي كل هذا؟

كُسر الصمت أخيراً، وفُتح الباب.

نظرتُ خلفي فإذا بمجموعة من الرجال يقفون على باب المعبـد، يلبسون ثياب المقاتلين، ويحملون أسلحتهم.

وقفتُ أستقبل الموت، لقد وصلوا أخيراً.

قال أقربهم "المكان آمن، لا كمين"

قال الآخر "رهبان فقط"

فقال قائدهم "أخفضوا أسلحتكم"

كان المعبد مصمماً على أن يحوي بـابين يقابـل أحـدهما الآخـر، وكان على الجيش أن يمر بالمعبد ليدخل من مدخلـه الأول ويخـرج مـن الثاني كي يكمل مسيره، وقد كنتُ أقف في منتصف الطريق.

ها قد حانت الساعة، ها أنا ذا أمامهم ليأخذوا بثأرهم.

دخل القائد أولاً، وسار في المعبد خافضاً سلاحه، ودخلـتْ خلفـه كتيبته المؤلفة من ثلاثين شخصاً، كلهم خفضوا السلاح.

قال القائد "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتلـوا وليـداً، لا تقتلوا امرأة، لا تقتلوا طفلاً، لا تقتلوا شيخاً، لا تحرقـوا زرعـاً، لا

تهدموا بيتاً، ستجدون رهباناً تفرغوا للعبادة في الصوامع فلا تقربوهم"

كانت هذه أول مرة أسمع فيها شيئاً كهذا في حياتي! هل هذه قواعد هذا الجيش؟ إنه خلاف ما فعلنا! إنه خلاف أوامرنا!

مر القائد إلى جانبي، ولم يصبني بأي أذى، بل سمعته يقول "السلام عليكم"

لم تخرج أي كلمة مناسبة من فمي، فما زلتُ في هول الصدمة.

كذلك سار الجيش بأكمله إلى جانبي، ولم يمسسني أحدهم بأي مكروه، بل لم أسمع أحدهم ينطق بأي كلمة تسيء إلينا.

ولكنني استوقفتُ القائد قائلاً "يا قائد الجيش"

توقف القائد، ونظر إليّ، فقلتُ "أهذا فقط ما تفعلون؟ ألن تأخذوا بثأركم منا؟"

أجاب بتواضع "نحن لا نثأر من أحد، ولا نقتل الرهبان، فهذا ما أمرنا به إسلامنا ونبينا الكريم"

قلتُ "ولكنني قتلتُ منكم الكثير، بل إنني قتلتُ الأطفال والنساء"

نظر إلى ثيابي وقال "يبدو لي أنك تركت ذلك"

"أجل"

"بني، نحن لا نقاتل من لا يقاتل، إلى أن تحمل سلاحك وتخرج من المعبد فأنت في أمان"

وعاود السير.

كل ما خطر ببالي أن أنظر إلى المدينة بعد أن ساروا فيها، فركضتُ إلى الباب الذي دخلوا منه، فنظرتُ إلى الطرقات.

كل البيوت قائمة، كل الأشجار خضرة، كل الطرقات نظيفة، كل الناس في بيوتهم آمنون! إنهم فعلاً يعنون ما يقولون، لم يقتلوا من لا يقاتل، لم يهدموا بيتاً، ولم يقطعوا شجرة.

بل إن الهواء عليل، أشتم رائحة المسك في الطرقات، إنه خير يعم المكان.

نزعتُ اللاصق الطبي عن أنفي، فإذا بالنزيف قد توقف لأول مرة خلال أكثر من ثلاث سنوات! لقد علمتُ أنه توقف، هذا الهواء العليل كاف لإيقافه.

أي حرب هذه؟

ركضتُ إلى القائد وقد كان قد خرج بالجيش من الباب الثاني، استوقفته ولكن الجيش حام حولي، طلب إليهم القائد أن يسمحوا لي بالاقتراب منه، فاقتربتُ وسألتُ "من أنتم؟ كيف أصبحتم هكذا؟"

أجاب "إسلامنا يأمرنا بذلك، ونبينا علمنا أخلاق الإسلام، نحن مسلمون"

"أريد أن أكون منكم، كيف لي أن أصبح كذلك؟"

"إذا ما كنتَ فعلاً تريد ذلك، ما عليك إلا أن تتبعنا"

كان هذا سهلاً للغاية، تبعتُ الكتيبة في مسيرها، كان سيراً لطيفاً سلساً، لم يدخلوا منزلاً، ولم يقلقوا أحداً، ولم يتعرض لهم أحد بمكروه، لقد كان دخولهم مسالماً جداً.

حتى جيش المدينة نفسه كان الناس يخافونه أكثر! ما هذه الأخلاق، ما هذا التواضع، ما هذه القوة، ما هذه الهيبة! هذا حق، هذا حق.

*

الفصل الرابع والثمانون

تبعتُ الكتيبة إلى أن اتصلت بالكتائب الأخرى وسط المدينة، وخرج الناس من بيوتهم، واجتمع الحشد ليستمع إلى القائد العام، الذي بكل تأكيد سيكون رئيسهم الجديد.

جلستُ مع الكتائب بينما جلس العامة في الساحة، وصعد الخطيب يتكلم.

لم يكن يرتدي ثياباً فاخرة، لقد كان بسيطاً، وقف أمام السماعة وقال:

"بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ

ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾

صدق الله العظيم.

الحمد لله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

الحمد لله الملك المحمود، المالك الودود، مصور كل مولود، وموئل كل مطرود.

مرسل الأمطار، عالم الأسرار، مكوّر الدهور.

لا إله للأمم سواه، أرسل محمداً علَماً للإسلام وإماماً للحكّام، رحم آله وأهله الكرام.

اعملوا رحمكم الله أصلح الأعمال، واسلكوا مصالح الحلال، واطرحوا الحرام ودعوه، واسمعوا أمر الله وعوه، وصِلوا الأرحام وراعوها، وعاصوا الأهواء واردعوها.

أسأل الله حكماً أحمد وصاله، ودوام إسعاده، وإصلاح حاله.

والحمد لله، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم"

هتف الجيش بكل قوة "الله أكبر! الله أكبر!"

ثم عاود القائد الكلام موجهاً حديثه لعامة الشعب "أيها الناس، لا ظلم اليوم، أنتم آمنون في منازلكم، ونحن آمنون في منازلنا، ستنشأ المساجد، وسيعلوا ذكر الله فيها، وستبقى معابدكم لمن يتعبد فيها.

ستتعلمون الكثير عن الإسلام، وعن نبي آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم، ولمن شاء أن ينضم إلى المسلمين فله ذلك، حراً مختاراً لا مجبراً مكرهاً.

ستصان الحقوق، ويعم السلام، وتنتهي الحروب، فمن طاله منكم أذى أثناء حربنا، فليتقدم ويطلب ما يشاء"

سكتَ الخطيب، ولم ينطق أحد بكلمة، فأعاد ما قاله "من طاله منكم أذى أثناء حربنا، فليتقدم ويطلب ما يشاء"

فلم ينطق أحد بأية كلمة، ليس هناك من خسائر، لم تشتعل الحرب إلا على الحدود مع المقاتلين، ولم يمس المواطنين أذى من أي نوع، إنها أخلاق الحرب.

تابع الخطيب "فلتعد حياتكم إلى ما كانت عليه، افتحوا أسواقكم، ومدارسكم، ومواصلاتكم، أنتم أحرار"

وقف أحد الحاضرين يقول "ألن تلاحقونا في الشوارع وتقتلوا أطفالنا؟"

قال الخطيب مؤكداً "هذا ظلم لا يصنعه مسلم"

قالتْ امرأة من الحاضرين "ألن تأخذوا أموالنا؟"

أجاب الخطيب "ليس لنا حق فيها"

قال آخر "فماذا صنعتم؟"

أجاب الخطيب "قمنا بحماية أرضنا من تسلط وجهائكم، وأعدنا العزة لديننا، وعرّفناه لكم، كما طلب إلينا الله ورسوله"

قال أحدهم "من يدخل دينكم؟"

أجاب "من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم، الذي علمنا ديننا هو عبده ورسوله"

هنا وقفتُ وقلتُ "أشهد أنه دين الحق، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"

كبّرتْ الكتيبة التي كنتُ أجلس بينها، ثم عم التكبير المكان، ونهض العشرات من الناس أيضاً شهدوا بوحدانية الله، وآمنوا بالدين الحق.

بل إن الخير عم المدينة أكثر من أي يوم آخر، والسعادة ارتسمت على الوجوه، لقد بتنا أخوة متحابين بعد عداء دام سنوات.

وتعلمتُ الصلاة لأول مرة، وسجدتُ أول سجدة خالصة لله وحده، وما إن وضعتُ أنفي على الأرض حتى تلاشت الندبة عنه إلى الأبد، إنه الحل، الحل الذي بحثت عنه طويلاً، لقد حللتُ مشكلتي.

الفصل الخامس والثمانون

بتّ مقرباً من قائد الكتيبة التي التقيتها أول مرة، حدّثته عن كل ما كنا نفعل في الجيش، وكل ما تعلمناه، وكل الأوامر التي كانت تلقى إلينا بكل حزم، وحدثته عن الكوارث بالتفصيل، وكل ما فعلناه في كل منزل.

ربما لم يكن حديثاً جميلاً، ولكنه أنصت إليه جيداً.

أخيراً كان علي أن أعود إلى منزلي، ولكن... منزلي أكلته النيران.

شعر القائد أن هناك خطباً ما، فأخبرته أن منزلي أكلته النيران قبل الحرب ببضعة أيام، ويحتاج إلى الكثير من العمل والمال، فعرض عليّ المساعدة.

ظننتُ أنه سيقوم بإعانتي ببعض المال، ولكنني فوجئت به إذ حضر مع أفراد الكتيبة يقومون بالعمل في تصليح المنزل بأيديهم.

لم أتصور أن كتيبة جيش تفعل شيئاً كهذا، ولكنهم كانوا سعداء بالمساعدة، بل كان الجميع يمرحون ويضحكون، لقد بت فرداً في العائلة.

أنهينا العمل خلال أسبوع، وعاد منزلي أفضل مما كان عليه،

وحصلتُ على مبلغ جيد من المال كما حصل عليه معظم المحتـاجين مـن الـسكان، وعلمـتُ أن راتبـاً شـهرياً سيـصرف للجميـع إضـافة إلى مـا سيجنون من أعمالهم.

باتت الحياة أسهل بكثير، لم أعد قلقاً علـى شـيء، أسـتطيع أن أكمل دراستي، أستطيع أن أعمل براحـة نفـسية، ولـيس علـيّ أن أقلـق على شيء.

أشعر أنني بت أعيش في كوكب آخر.

ﷻ

الفصل السادس والثمانون

مرت بضعة أسابيع، واستقرتْ الأوضاع تماماً، وتعلّم السكان الكثير عن الإسلام، فآمنوا به، واتبعوا نهجه طائعين سعيدين.

لم تنعم دولتنا بالسعادة والأمان كما هي الآن، ليتني كنتُ أعلم أن شيئاً كهذا سيحصل في حياتي، لكنتُ نمت قرير العين.

عرض عليّ القائد أن أنضم إلى الجيش، حيث كنتُ جندياً من قبل، ولن يصعب عليّ ذلك، ولكنني أخبرته أنني أرغب بقسط من الراحة، أريد أن أنعم ببعض الهدوء، ربما انضممت إليه في وقت لاحق، فأنا يشرفني أن أكون ضمن جيش ذي أخلاق فريدة كهذا الجيش.

تركني القائد كما أشاء، ولكنه أخبرني أن هناك سلسلة من القصاصات ستنفذ في الساحة العامة.

هم أناس تعرضوا للجيش بالأذى، وحاربوا بضراوة، وامتنعوا عن كل اتفاق.

أناس ساهموا بقوة في الحروب الماضية، والحرب الحالية.

أناس رفضوا كل فرصة للتخلي عما يفعلون، والخضوع للمسلمين.

وقفتُ في الساحة فكان أول المجازين والد نادية.

تصورتُ الموقف الذي أقف فيه، ماذا سأقول لنادية! نظرتُ إلى القائد، فقال لي "لقد كان قائدك"

قلتُ "هل جعلتني أتحدث عن المعارك التي خضتُها لتدينه؟"

قال "كلا، لقد كان مداناً منذ زمن، ولكنك فقط أثبت الأمر"

كان الحزن بادياً عليّ، فقال "هل أنت حزين على شخص مثله؟"

قلتُ "الحقيقة، إن له فتاة في مثل عمري، أعرفها معرفة جيدة، وهي فتاة رائعة"

نظر القائد إلى والد نادية وقال "خسارة ما يفعله هؤلاء بأهلهم"

لم أعد أعرف ما أفعل، بل لم يكن بيدي ما أفعله، أعلم تماماً أنه يستحق أكثر من ذلك، ولكن... ماذا سأقول لنادية إذا ما صادفتها مرة في الحياة؟

نُفذ الإعدام بسرعة، ولم أستطع أن أشاهد المنظر، بل بدأت عيناي تدمعان رغماً عني، لن تسامحني نادية على ما حصل.

ﮘﮗ

الفصل السابع والثمانون

استقرتْ الأوضاع تماماً، وأكملتُ دراستي الجامعية، وتخرجتُ بعلامات جيدة.

الأفضل من هذا كله أنني بتُّ أنام بهدوء، قرير العين، دون الحاجة إلى أي مهدئ، وبت أعلم أنني إنسان جديد، حيث تعلمتُ أن الإسلام يمحو ما قبله.

هذه كانت أسعد أيام حياتي، لو كنتُ أضمن مستقبلاً مشرقاً كهذا منذ البداية لما خفت الخروج من الميتم، لما اضطررت للسير في طرق أعلم أنها ملتوية، لما فعلتُ أموراً كثيرة مما فعلت.

الحمد لله، هذه حياة لم أكن حتى أحلم بها على الأرض، أما الآن فقد بت أيضاً أحلم بأفضل منها في السماء، هذا فضل كبير سأشكر الله عليه ما حييت.

الآن بعد التفرغ النفسي الكامل، وبعد أن تعلمتُ الكثير مما كان علي أن أعرفه عن الإسلام، بدأتُ أفكر بالآخرين.

آدم، ماذا تفعل الآن؟ بل أين أنت؟

كل الناس الذين غادروا أثناء الحرب اتجهوا إلى الدولة المجاورة المحايدة، هل بقيتَ هناك أم أنك غادرتها إلى مكان آخر؟

أعلم أنك لستَ صاحب القرار في كل هذا، أعلـم أن ألـين هـو مـن ينقلك هنا وهناك، فكيف لي أن أتصل بك؟

بدأتُ أستفسر هنا وهناك، لابد أن أحداً يعلم عـن الفـارين، بـل إن بعضهم قد حزم أمتعته وعاد إلى منزله هنا بعد أن ضـمن الاسـتقرار والأمان.

ذهبتُ إليهم، وسألتهم عـن آدم، معظمهـم أخبرنـي أن الجميـع انتقلـوا إلى نفـس المدينـة في الدولـة المجـاورة، وسـكنوا هنـاك معـاً، ولكنهم لم يعرفوا شيئاً عن آدم.

سألتُ عن نادية، فكانت الإجابة أوضح، إنهـا تـسكن مـع أمهـا هناك، ولا تنوي العودة بعد مقتل والدها.

حصلتُ على عنوان نادية، ربما تعرف نادية منـزل آدم، فهـي الأقرب إليه بين الجميع.

حزمتُ أمتعتي وقررت الـسفر، سـأعود لألقـى أحبـائي، ناديـة وآدم، لقد اشتقتُ إليهما كثيراً.

الفصل الثامن والثمانون

ودعتُ أصدقائي الجدد، وطلبتُ إليهم أن يدعوا لي أثناء غيابي حتى أعود سالماً إليهم.

لم تكن الدولة المجاورة شديدة على المسلمين، ولكنها أيضاً لم تكن دولة إسلامية، لم أكن خائفاً من الذهاب إلى هناك، ولكن شيئاً كان يقول لي أنني سأواجه الكثير.

حزمتُ أمتعتي، وركبتُ طائرة أوصلتني إلى المدينة التي أريد مباشرة.

كنتُ أفضّل فعلاً أن أقابل آدم أولاً، حيث أعلم أن نادية الآن تشكو مقتل والدها، وأنني لم أحاول مساعدته على الإطلاق.

لم يكن لدي خيار آخر، ذهبتُ إلى العنوان الذي أملك، كان منزلاً بسيطاً لا يقارن بالمنزل الذي كانت تسكنه.

فتحتْ أم نادية الباب، وعرفتني فوراً، وكانتْ سعيدة جداً برؤيتي.

لقد وجدتْ بي حلاً لكآبة نادية على ما أظن، ولكن الأمور لم تسر بهذه السلاسة.

كانت نادية تحبس نفسها في غرفتها، تجلس على الفراش طول اليوم، رغم أن مقتل والدها مر عليه زمن طويل.

يبدو أنها لا تريد أن تعيش حياة جديدة، يبدو أنها تريد كل ما كانت عليه من قبل، يبدو أنها لم تتخيل يوماً أن يحصل كل هذا.

فتحتْ أم نادية باب غرفتها، وقالت لنادية "لقد حضر أحدهم لزيارتك"

دخلتُ الباب، فنظرتْ إلي بطرف عينها لتكتشف أنني إبراهيم! تفاجأتْ وفرحتْ كثيراً برؤيتي، ونهضتْ من الفراش تعانقني، يبدو أن وجودي كان له وقع كبير، وذكرى للأيام الجميلة.

طلبتْ إلي الجلوس، فقد كان هناك الكثير لنتحدث عنه، ففعلتُ، وسعدتُ لتغير نفسيتها بوجودي، إنها تضحك وتمرح، لقد تغيرت الأجواء كثيراً عما كانت عليه.

وقد لاحظتْ أنني لم أعد أضع اللاصق الطبي على أنفي، فضحكت لذلك وقالت أنها كانت تحب منظر اللاصق عليّ، وهي لا تعلم شيئاً عن حكاية الجرح.

تبادلنا أطراف الحديث إلى أن بدأنا نتحدث عن والدها، وبما أنني لم أخبرها بعد أنني اعتنقت الإسلام كانت صريحة في كرهها له، وأن المسلمين قد قتلوا والدها، وأنهم قد احتلوا الأرض...

كنتُ قادراً على رد كل ما قالت، ولكنني لم أفعل، لم أستطع فعلاً أن أزف لها خبر إسلامي مرة واحدة، فأنا أعلم تماماً كيف

تشعر، وأعلم أنها لن تستقبل الأمر بشكل جيد، ربما تموت من فورها أو تقتلني!

كل ما استطعتُ قوله أن البلاد آمنة الآن، وتستطيع العودة إليها متى تشاء، ولن يتعرض لها أحد بأي أذى، ولكنها رفضتْ أن تدخل البلاد التي أُخذت من والدها، وأن تكون إلى جانب الأشرار كما وصفتهم.

حسناً، ربما يكون الموقف صعباً بالنسبة إلى نادية، فقد فقدتْ الكثير في هذه الحرب، ولكن ربما يكون حظي أوفر مع آدم، فسألتها إذا ما كانت تعرف أخباره.

أجابتني بكل بساطة ووضوح أنه يسكن المدينة المجاورة مع والديه، وقد قام بزيارتها عدة مرات، وعنوانه لديها رغم أنها لم تزره أبداً حيث اعتزلتْ منزلها.

أخذتُ العنوان، الحمد لله كان ذلك أسهل مما ظننت، ثم استأذنتُ للخروج إليه، فقد اشتقتُ لصحبته كثيراً.

أصرتْ على البقاء مدة أطول، بل المبيت الليلة، ولكن كان عليّ الذهاب، استأذنتها وأعلمتها أنني سأزورها ثانية.

ﮁﮂ

الفصل التاسع والثمانون

خرجتُ من فوري إلى عنوان آدم، لم يكن بعيداً، وصلتُ إليه بسهولة.

منزل بسيط بحديقة صغيرة، ويبدو أن له حديقة خلفية أيضاً.

طرقتُ الباب، ففتحتْ لي أم آدم، أو التي كنتُ أظنها أمه منذ زمن، ويبدو أنها قد تذكرتني، فقد اندهشت لرؤيتي كثيراً، ثم ابتسمتْ ترحب بي، وأدخلتني تقول أن آدم لن يصدق ذلك.

كانت الدمعة ستسقط من عينها! لم أكن أتوقع أن أترك أثراً كبيراً في الناس في الأعوام الماضية، لقد كان ذلك غريباً.

ركضتْ في المنزل تنادي آدم، ولكن زوجها كان من حضر، ونظر إليّ كأنه ينظر إلى شبح ما! لماذا لا يصدقون ما يرون؟

أخيراً علمتُ أن آدم يجلس في الحديقة الخلفية، فطلبتُ إليهما ألا يعلماه بقدومي، وسأذهب إليه بنفسي.

دخلتُ الحديقة، فكان آدم يجلس على كرسي يقرأ كتاباً، اقتربتُ منه بهدوء إلى أن انتبه إلى وجودي، ونظر إليّ دون أن ينطق بأية كلمة، أظن أن كل التعابير قد خانته في تلك اللحظة، ولكنه ترك الكتاب يسقط من يده على الأرض، واحتضنني بحرارة.

نظر إليّ والدموع في عينيه يقول "أنت بخير!"

قلتُ "في أحسن حال"

جلس على كرسيه ببطء وقال "لقد أخبروني أنك..."

لم يكمل كلمته، قلتُ "ماذا؟"

قال "أكلتك النيران مع المعبد"

لم أصدق ما أسمع! من يطلق إشاعة كهذه! جلستُ إلى جانبه وقلتُ "لم يحصل شيء من هذا القبيل، ولم يحرق المعبد أساساً، إنه قائم وفي أحسن حال"



حدّق في طويلاً، ثم وضع يده على خدي وقال "الندبة"

ابتسمتُ وقلتُ "لقد تلاشت تماماً" ثم أمسكتُ يديه وقلتُ "لقد وجدتُ الحل، الحل لكل المشاكل، مشكلتي، ومشكلتك، وكل شيء"

ابتسمَ سعيداً بهذا الخبر، وقال "هذا مدهش! ماذا حدث؟"

قلتُ "إنه الإسلام"

تغيرتْ ملامحه فجأة وكأنني ألقيتُ حجراً على رأسه، وسكتنا عن الكلام، هو يبتلع ما ألقيتُه إليه بصعوبة، وأنا أحاول أن أعطيه الفرصة الكافية لابتلاعه.

حدق في الأرض، في الطاولة، على الأشجار، نظر إلى أي مكان إلا وجهي، إلا عينيّ الصافيتين.

قلتُ "ماذا أخبروك بعد"

نظر إليّ أخيراً، وقال "هل أنت جاد؟"

"لِم لا؟"

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال "لا أصدق أنك تقول ذلك"

قلتُ لك "ألا ترى أن الندبة قد تلاشت"

"تلاشت لأنها قد تلاشت مع الزمن"

"إذا ما كان ذلك صحيحاً فقد كان عليها أن تتلاشى منذ سنين وأنت تعلم ذلك" أشحتَ برأسك ساخراً، فقلتُ "لا أصدق أنك تكذبني"

قال "أنا لا أكذبك، ولكن هل هذا هو اللقاء الذي كنتَ تحلم به؟ لماذا حضرتَ إلى هنا؟"

"حضرتُ لأنني اشتقتُ إليك"

حدّق فيّ لحظة ثم قال "لقد تغيرتَ، علمتُ من اللحظة الأولى أن شيئاً كبيراً فيك قد تغير"

"إلى الأفضل"

"لستُ أدري"

قلتُ أحاول تلطيف الجو "لقد قابلتُ نادية، هي من دلني على عنوانك"

قال موجهاً كلمة قوية إلى نفسي "التي قَتل المسلمون أباها"

سكتُّ، فنظر إليّ يظن أنه الحلقة الأقوى في النقاش، وقال "هل أخبرتها أنك أسلمت؟"

قلتُ "ليس بعد، ظننتُ أنك ستستقبل الأمر أفضل منها"

"لقد كان والدها أقرب إليك، كيف تسكتُ على شيء كهذا؟"

نظرتُ إليه بجدية وقلتُ "من تظن كان والد نادية؟ هل كنتَ تظنه الإنسان الشهم الشريف؟ آسف لإخبارك أنه ليس كذلك، لقد كان طاغية أمام الجميع، لقد كان يأمرنا بالقضاء على الأخضر واليابس، لقد صنع منا وحوشاً لم نستطع التخلص من كوابيسها مع السنين"

تجاهل ما قلتُ، وعـاد إلى البدايـة "ولكـن ناديـة حزينـة عليـه كثيراً"

"أعلم ذلك، وأريد أن تخرج مـن حزنهـا هـذا، يجـب أن نفعـل شيئاً"

"لم أستطع فعل أي شيء، عليك أن تقوم بذلك بنفسك، فلـم أكـن مَن تحتاج طول الوقت، أنت هنا الآن، وباستطاعتك مـساعدتها، علـى ألا تخبرها بما تخبرني به الآن!"

"أود فعلاً أن تفهم الموقف كاملاً، ولكنني لا أعلم كيف"

ابتسم ونهض يقول "لن تفهمه، فلا تحاول، لقد مسخوا دماغك على ما يبدو"

نهضتُّ منزعجاً وقلتُ "لم يحصل شيء من هذا القبيـل، أنـت لم تر ما رأيت، إنهم أنـاس أمينـون، صـادقون، شـجعان، لا يهـابون إلا الله، وحياتهم متصلة به وحده، إيمانهم قوي، وأقوالهم أفعال"

"حسناً حسناً، لن يجدي ما تقول نفعاً"

"عليك أن تعود لترى كيف صارت عليه دولتنا، لقد أصلحوا لـي منزلي دون مقابل"

نظر إلي وتذكر "لم تبع شيئاً من أعضائك إذن"

"لم أكن مضطراً إلى ذلك، لقد اعتنوا بي"

"على أي حال، أنا لن أعود إلى تلك البلاد، كما قلتُ لك سابقاً، لا انتماء بيننا، وكل ما كان لي في تلك البلاد هو أنت، وها أنت هنا"

"ولكنني سأعود"

سكتَ، ثم ابتسم وقال "هكذا؟"

"لقد حضرتُ من أجلكما فقط، لأنني اشتقتُ إليكما، وإلى الأيام الجميلة"

"كانت كالخيال"

"نستطيع أن نعيش معاً ثانية، صدقني، الأوضاع باتت أفضل مما كانت عليه، سنكون سعداء"

"القرار ليس بيدي"

"أستطيع أن أكلم ألين بشأن ذلك، أريد موافقتك فقط"

فكّر وفكّر، ثم قال "لن تعود نادية معك أبداً"

"أريد موافقتك أنت الآن"

ولكنه أشار بالنفي، وقال ثانية "ليس لي شيء هناك، وإبراهيم الذي عرفتُه لم يعد من عرفتُ"

80C3

الفصل التسعون

يبدو أن الحظ لم يحالفني، سأحتاج إلى فرصة ثانية وربما ثالثة ورابعة لإقناعهم.

هل ألومهم؟ هل يصعب عليهم استيعاب ما يجري إلى هذه الدرجة؟ هل كنتُ سأتصرف مثلهم إذا ما كنت في مكانهم؟ ماذا إذا ما أسلم آدم قبلي، هل كنتُ سأستقبله بصدر رحب؟

يتوجب علي أن أصبر، فهي صدمة كبيرة بالنسبة لهما، لقد كان المسلمون أعداء لسنين، فيكف لهم أن يغيروا نظرتهم في يوم.

بتُّ الليلة في فندق، وفي اليوم التالي كان علي أن أزور أحدهما، فعدت إلى نادية.

كان استقبالها حافلاً، كانت سعيدة جداً، وقد استبدلتْ ثيابها، وسرّحت شعرها، وجهزت مائدة شهية للإفطار.

لحسن حظي كان الإفطار لا يحوي محرمات في معظمه، وإلا لكان قد انكشف أمر إسلامي بسرعة، وتخيلتُ لو أنني حضرت في وقت الغداء ماذا كنت سأفعل؟

جلسنا وتحدثنا في أمور سعيدة، أحب فعلاً أن أراها مبتهجة، أنا سعيد أنني أستطيع أن أخرج إنساناً من وحدته وحزنه، ولكن هل سيدوم ذلك طويلاً؟

أخبرتها أنني قابلتُ آدم، فسألتني عن أخباره، وأنه لابد كان سعيداً جداً بلقائي، فقلتُ لها أنه ظن أنني قد حُرقتُ مع المعبد، فقالت إن الجميع يعلم أن المعابد كلها قد احترقت، فأخبرتها أن هذا لم يحصل، وأن المعابد لم تصب بأي أذى، ولم يحصل شيء من هذا القبيل مع أي بيت وأي معبد، وكل شيء على ما يرام.

فرحتْ بذلك، وتعجبتْ أن المسلمين لم يدمروا شيئاً، كانت تلك بداية موفقة، هذه أول مرة أسمع فيها نادية تذكر فيها المسلمين مع وجه سعيد.

بعد الإفطار أحضرتْ نادية مشروباً روحياً لنشرب سوياً، لم يكن من العادة أن نشرب شيئاً كهذا في الصباح بعد الإفطار، ولكنها سكبتْ القليل للضيافة.

اعتذرتُ إليها أنني لا أرغب في الشرب الآن، فعلي أن أقوم ببعض الأعمال، ولكنها ألحتْ علي بشرب القليل للضيافة.

حاولت أن أشكرها وأبتعد عن الأمر بأية وسيلة، ونهضتُ للمغادرة، ولكنها وضعت الكؤوس جانباً وقالت "لقد دخلتَ في الإسلام أليس كذلك؟"

لم أقل شيئاً، يبدو أنها كانت تشك منذ زمن، وإنما جلبتْ المشروب لتتأكد فحسب، إنها تتجنب النظر إليّ، بعد صمت قصير قلتُ "نعم"

قالت "هل أجبروا الجميع على ذلك؟"

قلتُ "أبداً، للجميع حرية الاختيار"

"وهل كان هذا خيارك؟"

"نعم"

سكتتْ، ولم تنظر إليّ أبداً، فقلتُ "إنني آسف لما جرى بـ..."

ولكنها انفجرت بالبكاء، وقالت "كيف تفعل ذلك؟ لقد قتلوا والدي أمام الجميع! ألا يعني ذلك لك شيئاً؟"

قلتُ بهدوء "يصعب عليكِ فهم ذلك"

التفتتْ إليّ تقول "أفهم ماذا؟ لقد مات والدي!"

"لقد حاربهم سنوات طوالاً، وقتل منهم الكثير دون مبرر"

"لقد كان يدافع عن الوطن"

"بل كان يوسع نفوذه وسلطانه بالنار"

"كيف تجرؤ؟"

"أنا آسف جداً لكل ما جرى، إنه والدك، وليس مهماً من يكون غير ذلك"

"أنا لا أصدق أنك تقول ذلك، لا أصدق أنك نفس الإنسان الذي كنت أعرف"

"في الحقيقة أنا لستُ نفس الإنسان، لقد تغير كل شيء"

عاودتْ نادية البكاء، وجلستْ على الأريكة لا تنظر إليّ، فقلتُ "أردتُ فعلاً أن تخرجي من عزلتك، أردتُ فعلاً أن تعلمي أن أمرك يعنيني مهما جرى، ولكنني بحاجة إلى فرصة"

أشارتْ نادية بالنفي دون أن تنظر إلي، فاضطررتُ للمغادرة وترك الأمور على حالها هنا.

༄

الفصل الحادي والتسعون

قررتُ أن أستريح ليوم واحد، ونمتُ في الفندق ولم أقابل أياً منهما، ولكنني أظن أن هذا كان قراراً خاطئاً.

فقد قامت نادية بزيارة آدم في منزله بعد أن يئستْ مما أصبحتُ عليه، وقد كان آدم سعيداً بزيارتها، وأنها أخيراً قد تخلصتْ من عزلتها، ولكنها لم تكن سعيدة.

لم يستغرق آدم وقتاً طويلاً حتى شعر بذلك، بل قد شعر أيضاً أن نادية لطيفة جداً معه، فقال من فوره "لقد علمتِ بأمر إبراهيم"

أشارتْ بالإيجاب، واقتربتْ من آدم وقالت "لستُ أدري ما جرى له، لقد بات غريب الأطوار، ولكنك هنا، ما زلتَ كما عهدتُ، على الأقل هناك أناس لا يتغيرون"

لم يدر آدم هل التغيير كانت صفة جيدة يفقدها، ولكنه لم يشعر أنه مديح له، وفوق ذلك لم يشعر بسعادة بتقرب نادية منه، فقال "لقد قضينا وقتاً طويلاً في المدينة نفسها، وقمتُ بزيارتك مرات عدة، مع ذلك لم تقومي بزيارتي إلا بعد أن تركتِ إبراهيم"

قالت "ماذا تقصد؟"

فقال "أقصد أنك إذا ما كنت تحبينه فعليك أن تتمسكي به،

وتقنعيه أن يكف عن الهراء الذي يفعل، وأن تبعديه عمن قـاده إلى مـا هو عليه الآن، لا أن تتخلي عنه، ألم تعجبي به لأنه غير متوقع"

"وهل تفعل أنت ذلك؟"

"لـن أتركـه أبـداً، ولكنـه الآن يـشعر بنـشوة التغـيير، يـصعب إقناعه بشيء في الوقت الحالي"

"وإلى متى ننتظر؟"

"إلى أن يحين الوقت المناسب، إلى أن يملّ مما يفعل"

اقتنعتْ نادية بكلام آدم، وتناولتْ الغداء في منزله، رغم أن آدم كان دائماً يحب نادية، إلا أنه رفض تماماً أن تستبدله بي، وأن تحبـه فقط لأنها تتركني، كانت أفكار معقدة تدور في رأسه، أما أنـا فلـم أدر أن لقاء كهذا ما كان يجب أن أتركه يحدث.

80 03

الفصل الثاني والتسعون

ذهبتُ إلى منزل آدم في اليوم التالي، ولستُ أدري ما هي الاحتمالات التي ما أزال أفكر بها، هل سيستمع إليّ اليوم؟

استقبلني وأدخلني، وقدم لي العصير والحلوى، وسألني من فوره عن نادية، أخبرته أنها علمتْ بكل شيء، فسألني عن ردة فعلها، فأخبرته أنها كانت تقريباً مشابهة لردة فعله.

عندها قلتُ "هل تذكر يا آدم مباريات الدوري؟ هل تذكر الأيام السعيدة التي كنا نعمل فيها بجد لنحصل على ما نريد؟"

"أجل، ليت تلك الأيام تعود"

"هل تذكر ما كنتَ تكتبه لي؟ هل تذكر أنك كتبتَ أنك تثق بي، ولن تخذلني أبداً"

بقي صامتاً، فقلتُ "أما زلتَ تكتب؟"

بقي صامتاً، قلتُ "أعلم أنه لا يجوز لي أن أسأل عن ذلك، فهو أمر شخصي"

ولكنه قال "ما أزال أكتب"

"لي؟"

"لمن عرفتُ منذ سنين، للرمز الذي وقفتُ بسببه مجدداً"

"نستطيع أن نعود كما كنا"

"ولكن ذلك الرمز لن يعود"

"ستجد أفضل منه"

"لا أريد أفضل منه، أريده هو فقط"

ابتسمتُ وقلتُ "لا مشكلة، سأسبب لك بعض المشاكل بين الحين والآخر"

نظر إليّ وعيناه تقولان أنه لا يقصد المزاح على الإطلاق، فقلتُ "ماذا تريد بالضبط؟"

"أنت تعلم ما أريد"

"لن أترك ما أنا عليه"

"إذن ليس هناك نقاش بيننا"

"هل سترفض لي طلباً؟"

"ما هو؟"

"شهر واحد، اعتبره عطلة صيفية نقضيها معاً في بلادنا"

"أولاً إنها بلادك أنت، ثانياً لا أريد أن أجلس إلى المسلمين"

"لن يصيبك أي أحد بأذى"

أشار بالنفي، فقلتُ "ثق بي، ولن أطلب إليك شيئاً آخر"

لقد سبق أن قرر أن يثق بي، فهل سيخذلني الآن؟ قلتُ "لقد حجزتُ طائرة بعد ثلاثة أيام، تستطيع أن تقرر وتحجز متى تشاء"

ثلاثة أيام فقط، هل أستطيع بها تغيير الأمور؟

الفصل الثالث والتسعون

قدم ألين إلى منزل آدم في غيابي، وطلب إليه أن يتبعه، وأخذه إلى مركز للشرطة.

تعجب آدم من ذلك، حيث أنه كان يتجنب التواجد في أماكن كهذه، ولكنه أدخله إلى حيث يحجز المتهمون، ووقف أمام زنزانة وقال "هل ترى هذا؟"

نظر آدم في الرجل، إنه في أواخر الأربعين، يبدو أنه قد قضى وقتاً في السجن، قال "ما باله؟"

قال ألين "إنه طبيب"

"ما شأني أنا؟"

أخذ ألين آدم إلى غرفة وحدهما، وأجلسه على كرسي ثم قال "لقد كان يعمل لصالح والدك"

فهم آدم ما يقصد ألين من فوره، وتابع ألين قائلاً "إنه من نفذ عمليات استئصال الأعضاء، وقد أمسكت الشرطة به"

بدأ الدم يفور في رأس آدم، ولكنه قال "ولماذا تخبرني بذلك؟ لقد كنتُ بعيداً عن هذه الأمور، لقد بدأتُ أنسى الأمر فعلاً"

أشار ألين بالنفي وقال "لن تنساه، هذا الرجل هنا ليأخذ

جـزاءه، مـا أردتُ أن أقولـه لـك أنـك الآن قـادر علـى قـول أي شـيء، والمطالبة بأي شيء، هنا ينتهي الأمر فعلاً"

بقي آدم صامتاً، لم يكن يريد أن يتعرف على الرجل الـذي كـان عليه أن يقتله بدلاً من أناس بريئين، ولكن ألين قال أيضاً "شيء آخر"

"ماذا؟"

"لقد مات والدك"

تجمد آدم، وقال ألين "لقد مات بفشل كلوي"

قال آدم "لقد كان يعاني من ذلك منذ زمن، لقـد تبرعـتْ والـدتي بكلية له في الماضي، أو ربما أخذها منها، ولكنها فشلت"

"كل يأخذ جزاءه"

أشار آدم بالنفي، وقال "ولكن كليتي لن تعود إليّ"

ودون أي كلمة أخرى، استدار وغادر المكان.

حتى القصاص لم يكن كافياً، ما الفائدة؟ لقد تأخر الوقت كثيراً.

☙❧

الفصل الرابع والتسعون

مـضى يومـان، ولم أتلـق أي رد مـن آدم، ولم أسمـع شـيئاً عـن نادية، عليّ أن أقوم بجولـة سـريعة قبـل مغـادرتي الـبلاد، يجـب أن أراهما.

لم أكن أعلم أن الوقت كان سـيئاً جـداً بالنـسبة لآدم، فمـا يـزال منزعجاً مما رأى وسمع وتذكر، جلستُ إليـه وقلـتُ "لا تبـدو علـى مـا يرام"

قال من فوره "لقد مات والدي"

لم أعرف الرد المناسب لخبر كهذا، فأنا أعلم تماماً كم عـانى آدم بسبب والده!

تابع قائلاً "وأمسك ألين بالطبيب الذي أجرى العملية الجراحية لكليتي، وهو في الزنزانة الآن"

سألتُ "ماذا سيفعلون به؟"

"طلب إليّ أن أختار ما أشاء، ولكنني لم أستطع" ثم ابتسم قـائلاً "لقد قتلتُ المظلومين، أما الآن فلم أستطع حتى فعل شيء بالجاني"

"أنت تفضل أن تنسى الأمر"

"ظننتُ أنني أستطيع"

صمتنا، فقال آدم "أما زلت مصراً على المغادرة؟"

"أجل، سأغادر غداً صباحاً"

لم يعلق، فقلتُ "كنتُ أحب فعلاً أن تحضر معي"

"ليس لدي ما أفعله هناك"

"صدقني ستجد حلاً لجميع مشاكلك هناك"

ابتسم وقال "أنت كنت مذنباً، وقد حصلتَ على الغفران على ما يبدو، أما أنا فلم أفعل ما يستحق كل ذلك"

"الأمر ليس كذلك، في الإسلام حل لجميع المشاكل أياً كانت"

"إذن فمن سيعيد إليّ كليتي؟"

"إن الله عادل، إن لم يكن هناك ما يعوضك في هذه الدنيا، فسيعوضك في الآخرة"

ابتسم ابتسامة ساخرة، ثم قال "وهل عليّ أن أنتظر كل هذه المدة، وإن لم يحدث ذلك؟"

"عليك أن تؤمن بعدل الله، الدنيا ليست عادلة، ولكنه لا يخفى عليه شيء، وسيعوضك في الآخرة، بل سيكافئك على إيمانك بعدله عندما ظلمك الناس"

"هذه أمانيّ"

"بل هذا إيمان"

"لا أصدق أنك تؤمن فعلاً بشيء كهذا"

"لأنك لم تر ما رأيت، ولم تجرب ما جربت، تعال معي تشاهد ما تحب"

"قلتُ لك أنني لن أفعل"

كان نقاشنا عقيماً، فنهضتُ وقلتُ "سأغادر بالطائرة الساعة السابعة صباحاً، حتى وإن لم تقرر الحضور الآن، فاعلم أن منزلي حاضر لك متى شئت"

ﮜﮝ

الفصل الخامس والتسعون

فكرتُ كثيراً في زيارة نادية، ولكنني قررت أن أجنبها العناء الأخير، وبقيتُ في الفندق.

في هذه الأثناء قدمتْ إلى منزل آدم، وتحدثا في أمري، ويبدو أن النقاش لم يسر على ما يرام.

قالت نادية "كيف تتركه يذهب؟"

"وماذا كنتِ تريدين مني أن أفعل؟ إنه مغادر في الطائرة غداً"

"ربما لا نراه ثانية"

"لا أظن ذلك، سيمل من تلك الحياة، ويكتشف أخيراً أننا كنا رفاقه"

"وإن لم يحصل ذلك؟ وإن ظل مهووساً بؤلئك الأشرار؟"

"لا أظن أنه بهذا الغباء"

"لقد طلبتَ إليّ ألا نتخلى عنه! ها أنت تتركه"

"سيعود"

"لن يعود"

"وماذا تريدين أن أفعل؟ أن أمنعه من السفر؟"

"هذا أقل ما تفعل"

"ماذا تقصدين؟"

"أن تمنعه من أي سفر نهائياً"

الفصل السادس والتسعون

حزمتُ أمتعتي وتجهزت للخـروج، اتجهـتُ إلى المطـار دون أن أودع أحداً

وصلتُ المطار ووضعتُ حقيـبتي وسـرتُ في المعـاملات، كـان كـل شيء على ما يـرام إلى أن ركـض نحـوي ثلاثـة مجنـدين، أمـسكوا بـي بعنف، وقادوني إلى غرفة منعزلة أمام الناس

فوراً كنتُ مقيداً، وبدؤوا يسألونني بصوت مرتفع "أين وضعتها؟"

لم أفهم ما يعني "وضعتُ ماذا؟"

حصلتُ على أول لكمة، وقد شعرتُ أنها البداية فقط لسلسلة من التعذيب، فقال "لا تتظاهر بالبراءة، سنفتش حقائبك، يستحـسن لـك أن تعترف قبل أن نجدها بأنفسنا"

"تجدون ماذا؟"

لكمة أخرى، واستمر الأمر كذلك إلى أن علمتُ أنهم يبحثون عن قنبلة كان من المفترض أن أفجر بهـا الطـائرة بعمليـة انتحاريـة، لمـاذا يفكرون هكذا؟

لم يصغوا إليّ، وتأجل إقلاع الطائرة إلى أن فُتـشت عـن آخرهـا، ولم يكن هناك أي أثر لقنبلة من أي نوع

ولكنهم لم يتركوني، أقلعتْ الطائرة بسلام، وحُبستُ في زنزانة

ألقى أشد أنواع العذاب، إلى أن وصلتْ الطائرة بسلام إلى المطار التالي

ولم يتركوني بعد، نمت ثلاث ليـال لا أرى فيهـا الـشمس، ولا آكل فيها إلا فضلات طعامهم، وأتلقى الضرب متى يحلو لهم

ماذا عساي أن أفعل حتى تظهر براءتـي؟ الطـائرة في أمـان، بـل لابد أنها قد أجرتْ الكثير من الرحلات إلى هذا الوقت!

كلا، إنهم لا ينتظرون براءتي، فأنا مذنب حتى لو كنتُ بريئاً، بما أن أحدهم قد خشي مني شيئاً فأنا مذنب ولن تظهر براءتي

في اليوم الرابع دخلوا علي ثانية، فسألتهم "لماذا شككتم بي دون غيري؟ ماذا فعلتُ بالضبط؟"

رغم أن هذا كان سؤالي كل يوم، إلا أنهم قد قرروا الإجابة عنـه اليوم أخيراً، قالوا "لقد تلقينا اتصالاً هاتفياً"

جفلتُ، من الذي يمزح مزحة كهذه؟ لا يمكن!

لم تعد لدي أسئلة، كل ما لدي كان الشك الـذي تحـول إلى يقـين يوماً بعد يوم

قرروا إطلاق سراحي في اليـوم العاشـر، ومُنعـت مـن ركـوب أي طائرة من أي نوع، وحجز على جوازي، وانتهى بي الأمر في الطرقـات في الساعة الثانية من منتصف الليل

لم أشعر بالجوع، لم أشعر بآلام جراحي، كل ما كان في رأسي أن أسارع إلى الفاعل

الفصل السابع والتسعون

طرقتُ باب منزل آدم في منتصف الليل، ففتح والده الباب ليرى وجهي ملطخاً بالدماء، وجسدي مليئاً بالكدمات، وثيابي مهترئة من التعذيب.

قلتُ له فوراً "أين آدم؟"

فقال "ماذا حدث؟"

"أيقظ آدم"

كان آدم قد استيقظ عندما سمع طرق الباب، وقدم إلي، وحدّق طويلاً ثم قال "تفضل"

قبل أن أخطو خطوة واحدة قلتُ "هل أنت من فعل ذلك؟"

ربما كانت جملتي تعبر عن سؤال بحت، ولكنني كنتُ أكيداً في قرارة نفسي أنه من فعل ذلك، ولم يكن جوابه يعني لي شيئاً، مع ذلك قال "لنتحدث في الداخل"

تُركنا لوحدنا، فجلب آدم إناء مليئاً بالماء، ومنديلاً ليمسح الدماء عن وجهي، وقال "وجهك مليء بالجراح"

لقد كان السبب في ذلك، فقلتُ "ولكنها ستلتئم"

ناولني المنديل، فمسحتُ وجهي، ثم قال "لم أكن أريدك أن تغادر"

فقلتُ منزعجاً "أوهكذا تفعل؟ لقد نلتُ أمرّ أنـواع العـذاب! لقـد مُنعت من السفر، لقد حجزوا جوازي! لقد دمّرتَ حياتـي"

"ستفهم يوماً أنني فعلتُ الصواب"

"عن أي صواب تتحدث؟ انظر ماذا حلّ بي!"

"هذا أفضل من أن تعود إليهم"

"كم مرة عليّ أن أقول أنهم ليسوا كما تتصور! إن المسلمين أناس رائعون، ودينهم أروع ما سمعت ورأيت في حياتي"

"وكيف تنسى أنهم قتلوا والد نادية؟"

صرختُ أقول "لقد كان يأمرني بقتل الأطفال! لقد أُصبتُ بـالأرق مدة ثلاث سنوات بسببه!"

تنهد، فقلتُ "هل تعلم نادية ما حل بي؟"

"أجل، وهي سعيدة أنك لم تغادر"

"لقد خرجتما عن نطاق المعقول! لا أصدق أنكما تفعلان ذلك"

"نريدك أن تكون إلى جانبنا"

"ولماذا لا تكونان إلى جـانبي؟ لقـد حـضرتُ إلى هنـا مـن أجلكمـا فقط!"

"ونحن نفعل ذلك من أجلك"

"أبداً، ليس هذا من مصلحتي على الإطلاق"

"هنا يكمن خلافنا"

نهضتُ لأغادر، وقلتُ "يبدو أنني مضطر للبقاء هنا بعض الوقت، كنتُ فعلاً أتمنى ظروفاً غير هذه"

غادرتُ، بينما بدأتْ أضراس آدم تؤلمه.

ꕤ

الفصل الثامن والتسعون

بقيتُ في هذه البلاد آسفاً مضطراً، وبدأتُ أشعر بالضيق، لا أريد أن أظل هنا، أريد أن أعود إلى بلادي بأي شكل!

لم أعد أريد أن أرى أحداً، أفضل الاعتزال، ولكن نقودي أوشكت على الانتهاء، ولست أملك عملاً يدر عليّ حتى المال القليل، ولست بمزاج أو بمظهر يسمح لي بالعمل.

كل أضلاعي تؤلمني، وجهي مليء بالكدمات، تمددت في غرفتي أشعر بالتعب الشديد والكآبة، ومر يومان على هذا الحال.

لم أعد أستطيع البقاء في الغرفة، لا أستطيع دفع الإجار التالي، حزمتُ أمتعتي ونزلت إلى الطرقات أجهل تماماً الوجهة التي سأتجهها.

كان علي أن أقرر، هل سأذهب إلى آدم أم إلى نادية؟ لقد جربتُ حظي مع آدم، وكان مصراً على ردعي، بل بعد كل ما جرى معي في المطار كان من الصعب أن أراه ثانية.

ونادية كانت تبكي في آخر لقاء لنا، إنها حزينة على والدها.

ولكنني أخيراً قررت أن أجرب حظي مع نادية، واتجهتُ إليها أتساءل كيف ستكون ردة فعلها عندما ترى الآثار على وجهي، ولكن ما لم أكن أحسب حساباً أنها وآدم على اتصال دائم.

فتحتْ لي البـاب ولم تعلـق، أدخلـتني تنظـر إلى الحقيبـة علـى ظهري، فقلتُ "لم يعد لدي النقود الكافية للأجرة"

قالت "لا عليك"

جلستُ على الأريكة، ونظرتُ إليها وسألتها "هل علمت ما فعل آدم بي؟"

"نعم"

"وما رأيك في ذلك يا ترى؟"

"إنه يحاول مساعدتك"

بدأ الدم يفور في رأسي، ولكنني تمالكت نفسي، فقالتْ "أما زلتَ مصراً على ما جئت من أجله"

"أنت تعلمين تماماً أنكما أعز من أعرف في هذه الدنيا، ولكنني بدأت أشعر بالندم بقدومي هنا"

"ألا يرضيك أن تعيش بيننا؟"

"أحب أن نعيش جميعنا في مكان جميل، وأنتما لا تفهمان ذلك"

"جوار القتلة ليس مكاناً جميلاً"

عدنا من حيث بدأنا، لا أظنها ستتخطى يوماً مرحلة الحقد على من قتل والدها، رغم أن السبب كان بيناً ومهماً، قلتُ "الزمن كفيل أن يجعلك تفهمين"

"أفهم تماماً أن والدي قد مات، وليست هناك حقائق أخرى"

رغم محاولاتي بتجنب النقاش في هذا الموضوع إلا أنها ما تـزال تتحدث عنه في كل لحظة، قلتُ "إذا ما كنت تظنين أنني سأترك ما أنـا عليه بسبب وفاة والدك فأنت مخطئة"

انزعجتْ نادية كثيراً بما قلتُ، وقالت "ألهذه الدرجة لا يعنيك موته شيئاً؟ ألهذه الدرجة لم أعد مهمة بالنسبة لك؟"

"أنت مهمة بالنسبة لي، لذلك أنا هنا، أما هو، فلو كنـتُ أعلـم فيه حقاً للحياة لكنتُ دافعتُ عنه لحظتها"

"ألهذا الحد تكره والدي!"

"لقد عانيتُ كثيراً بسبب ما اقترفتُ في الحرب، وكل ذلـك كـان تنفيذاً لأوامره"

"تفعل ذلك من أجل الوطن"

"لو كنتُ أعلم أن الوطن سيـصبح علـى مـا هـو عليـه الآن إذا مـا تركته للمسلمين، لكنت تركته لهم من البداية"

وضعتْ نادية يدها على رأسها، يبدو أنها قد فقـدت كـل رجـاء بي، فقالت آخر ما تقول لي "إذا ما وقف والدي أمامك الآن، هل كنـتَ ستعتذر إليه؟"

ولكنني أجبت بصراحة تامة "لا"

هكذا بتّ مشتركاً بالجريمة بالنسبة لنادية، وكأنها ترى قاتل والدها أمام عينها، نهضتْ وحامت في أرجاء الغرفة تفكر أمامي، لا أظن أن أي فكرة ستكون حسنة بعد هذا الحديث، ولكنها أخيراً ابتسمت وقالت "لا بأس، بما أنني لا أملك خياراً لإعادة والدي إلى الحياة، أجد نفسي مضطرة للصبر"

كان هذا كل ما قالت، ولكن الحقيقة أنني أشعر بحقد كبير يغلي في صدرها، ولستُ أدري الدواء المناسب.

قالت "اعذرني على سوء ضيافتي، لم أقدم لك شيئاً تشربه"

قلتُ "لا بأس، لا تتعبي نفسك"

"هذا لا يجوز، فمهما حدث هناك أصول تعلمناها منذ الصغر، علّمها لي والدي عندما كان على قيد الحياة"

لم أستطع أن أعلق على أي مما قالت، عليّ أن أتركها تهدأ وحدها، أتمنى أن يكون الأمر بهذه البساطة.

غابت نادية دقائق قليلة، وجلبت عصيراً مثلجاً يبدو شهياً، وبصراحة كانت نقودي قد نفدت، ولم أعد أتناول شيئاً شهياً كهذا.

قدمتْ لي العصير وقالت "تفضل، صحة وعافية"

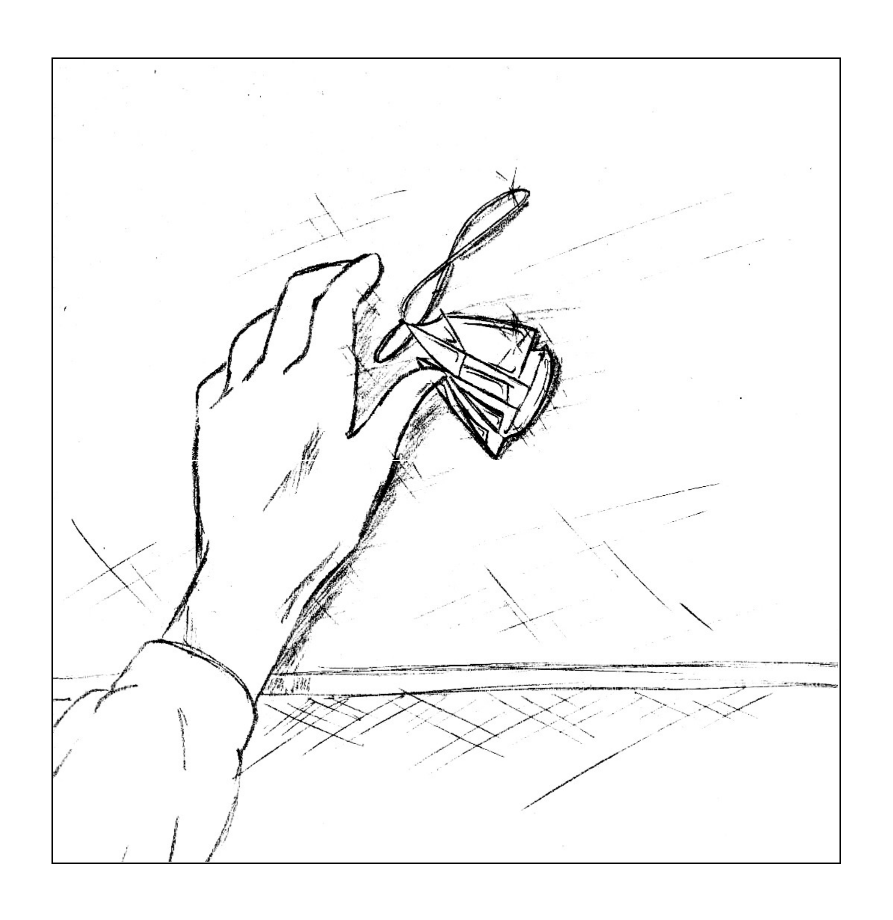
شربتُ رشفة من العصير، فلاحظتُ يد نادية ترجف، فعلمتُ فوراً ما جرى، وضعتُ العصير على الطاولة وقلتُ بهدوء "إنه مسموم أليس كذلك؟ أنت ترجفين بشدة"

ولكنها قالت "لقد علمني والدي الكثير"

ابتسمتُ وقلتُ "يبدو ذلك، ولكنه أشهى عصير صنعتِه لي"

شعور غريب ارتابني، هدوء، راحة، طمأنينة، لم أكن أعرف ماذا سأفعل في الأيام القادمة بعيداً عن إخواني المسلمين، ولكنني لم أكن مضطراً إلى التفكير أكثر، لقد تعبت ويبدو أن الطريق بات مليئاً بالمشاكل، ولكن الله يحبني، إنه يرحمني.

ثم وضعتُ يدي في جيبي، وأخرجتُ القلادة ذاتها، قلادة القارب، ووضعتها على الطاولة وقلتُ "قدميها لآدم"



الجزء الثالث

على لسان آدم

الفصل التاسع والتسعون

كنتُ جالساً في حديقة المنزل عندما اتصلتْ بي نادية تقول بصوت يهتز خوفاً "آدم... أريدك أن تحضر إلى منزلي الآن"

علمتُ أن الأمر مهم وضروري، خرجتُ من فوري واتجهتُ إلى منزل نادية أشعر بقلق شديد، ولكنني توقعتُ كل شيء إلا ما رأيت.

كنتَ جالساً على الكرسي مغشياً عليك، وقد سقط من يدك كوب عصير سكب على الأرض، ونادية تقف تنظر إليّ بقلق شديد.

سألتها عما جرى هنا، ولكنها لم تستطع أن تجيب، فاقتربتُ منك، وأمسكتُ بك أحاول إيقاظك، ولكن دون فائدة! نظرتُ إلى نادية وسألتها بجدية كبيرة "ماذا فعلتِ؟"

قالت ترجف "لن يغادر بعد اليوم"

قلتُ "ماذا فعلتِ؟"



ابتلعتْ ريقها وقالت "لقد وضعت السم في العصير"

لم أصدق ما أسمع! دفعتُك بقوة أحاول إيقاظك، ولكن لا جدوى، فنظرتُ إلى نادية أقول "هل جننتِ؟"

بدأتْ نادية تبكي وتقول "لقد ساهم في قتل والدي، لقد تغير، لقد..."

"أوتقتلينه؟!"

عندها قالت بصوت خافت "اخفض صوتك! علينا أن ندفنه في الحديقة قبل أن تحضر والدتي"

"ماذا؟"

"ليس لدينا خيار آخر، لا أحد يعرف أنه هنا سوانا، ندفنه في الحديقة الآن"

لستُ أدري ما أفعل، لستُ أدري ما أشعر، لم أتوقع يوماً أن أقف هذا الموقف، لقد أخطأتُ في حقك، لقد أخطأتُ كثيراً، ليتك غادرتَ بسلام!

أشعر بصداع، أشعر أن الدم سيتفجر في رأسي، وبدأ ضرسي يؤلمني، ماذا عساي أن أفعل؟ وهل هناك تصرف سليم في موقف كهذا؟

كل ما كنتُ متيقناً منه أنك كنتَ بارداً بين يدي، وأنك لن تعود إلى الحياة مهما فعلتُ، وأن الاعتذار والندم باتا متأخرين جداً.

وأن نادية لم تكن سعيدة بما فعلتْ، والخوف باد عليها، أتمنى فعلاً أن تشعر بالندم كما أشعر به أنا.

حملتك إلى الحديقة، وأرشدتني نادية إلى زاوية في الحديقة مناسبة للحفر دون أن ينتبه إليها أحد.

وضعتك جانباً وبدأتُ أحفر، حفرتُ كثيراً حتى أصبح العمق مناسباً، وشاركتُ في جريمة لستُ أدري إذا ما كنتَ المتضرر منها أم نحن، لقد أسأنا إليك كثيراً، لقد حزنتَ كثيراً، والآن أنتَ في مكان آخر، إنك في راحة أبدية.

كان عليّ أن أستمع إليك أكثر، على الأقل لم يكن يتوجب عليّ ردعك عن السفر، فربما سنحت لنا الفرصة في لقاء آخر! كيف أفكر؟ كيف قمتُ بكل ذلك؟ إلى أي درجة كنتُ أعمى؟

حملتُك ووضعتك في الحفرة، وما عدتُ أدري كيف طاوعتني يداي في دفن وجهك تحت التراب، لتكون آخر لحظات الوداع، روحٌ كان هي الحياة بالنسبة لي، وقد قتلتُها.

꧁꧂

الفصل المئة

عدتُ إلى المنزل أتخبط هنا وهنـاك، أشـعر بـدوار وألم وغثيـان، كان أسوأ ما مررتُ به في حياتي كلها.

وضعتُ رأسي على الفراش، أسناني تؤلمني، يكاد رأسي ينفجر.

ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات بل أربعة، لم أستطع النـوم، ولم يتوقف الألم رغم كل المسكنات التي ابتلعتها.

نـهضتُ من الفراش، وغادرتُ المنزل إلى أقـرب مـشفى، وطلبـتُ إليهم أن يخلعوا أضراس العقل لدي في الحال.

رغم كل المحاولات لإقنـاعي بأخـذ حقنـة مهدئـة إلى الـصباح، ولكنني أصررتُ على أن يحضر الطبيب في الحال.

حضر الطبيب بعد ساعة من انتظاري في الطوارئ، وبدأ يتفحص أسناني، لـيس فيهـا أي مكـروه! ولكـنني أصـررتُ أن يخلـع أضـراس العقل، وقد كان لدي اثنان، على الرغم من تأكده أنهمـا سـليمان تمامـاً إلا أنه شعر أنني مصاب بمرض نفسي ما، وطاوعني.

خلعتُ أول ضـرس، فـسمعتُك تـردد "أظـن أنـني مثلـها..." ثـم الثاني، وزال الألم.

الفصل المئة وواحد

عـدتُ إلى المنـزل وقـد هـدأ الألم بـشكل عجيـب، ونمـتُ مـا إن وضعت رأسي على الوسادة.

رغم الكوابيس الـتي حلمـتُ بهـا إلا أنـني نمـت، نمـتُ ثـلاث سـاعات أسمـع فيهـا صـوتك يـردد "أظـن أنـني مثلـها... أظـن أنـني مثلها..."

استيقظتُ في الصباح أتمنى أن يكون البارحة جـزءاً مـن كـابوس مـزعج، ولكنـه لم يكـن، بـل كانـت حيـاتي قـد تحولـت إلى كـابوس، كابوس لن أصحو منه مهما فعلت.

الغريب أن الجميع استيقظوا كـأي يـوم عـادي، "صـباح الخـير" كانت أول ما قـالاه لـي في الـصباح، لا يعلمـان أي إنـسان يـستقبلان في المنزل، بل لا يعلمان أن الخيال يختلف عن الواقع.

لطالما عاشا وهماً على شكل صبي يعيش بينهمـا، ولكـن أحـداً لا يدري كيف تسير الأحـداث، لا أظـن أنهمـا سـيتمنيان صـبياً فعـل مـا فعلتُ البارحة.

فطور وروتين عجيب، لا أستطيع التظـاهر أن شـيئاً لم يحـدث، وأنك بتّ تحت التراب، لماذا أنت من بين الجميع؟

نظرتْ إلي وقالت "آدم! لِم وجهك متورم هكذا؟"

أجبتها "لقد خلعتُ أضراس العقل البارحة"

قال "احذر أن تكون قد التهبت"

إنها مؤلمة ولكنني لا أظن أنها ملتهبة، فألمها لا يقارن بما كانت عليه.

في منتصف اليوم بدأ الألم يشتد، وبات التورم واضحاً في وجنتي.

ذهبتُ إلى الطبيب، فأعطاني دواء، وعدتُ إلى المنزل.

داومتُ على الدواء ولكن دون فائدة، يبدو أن قيحاً قد تجمع تحت أسناني! انشغلتُ بألم الأسنان، ولم أقابل أو أتحدث إلى أحد، ولا أعلم ما تفعل نادية، كما لم أعد أستطيع التفكير بأي شيء معين! بتُ في دوامة غريبة من الآلام والندم.

عدتُ إلى الطبيب فأشار إلي بعملية جراحية أزيل فيها القيح المتجمع.

لم يكن لدي خيار آخر، فوافقتُ على العملية، ولكن خلال الفحص الروتيني للعمليات أخبرتهم أنني أملك كلية واحدة، فأجروا فحصاً لوظائف الكلى على الفور.

ياللهول! كانت نتيجة الفحص سيئة للغاية، لقد تأثرتْ كليتي الوحيدة بالالتهاب بشكل ملحوظ.

على إثر ذلك دخلتُ المشفى، ونمتُ فيه لأيام أجري لي فيها عدة فحوصات، وكلها تدل على تدهور ملحوظ في وظائف الكلى.

أيام مضت على العلاج والنوم في المشفى، كانا قلقين علي كثيراً، ولكنني أعلم تماماً أن شخصاً مثلي لا يستحق العناء، وأن الموت نتيجة طبيعية لما فعلت.

قدم ألين يطمئن على صحتي، وقام بتغطية مادية شاملة لكل الفحوصات والعلاج، ولم نتحدث عنك أبداً.

كانت الأدوية عنيفة، وبدأ جسدي يضعف كثيراً، لم أعد أقوى على الحراك، ولم أكن في وضع نفسي يساعدني على المقاومة.

استسلمتُ للمرض، إنه جزاء عادل بكل تأكيد، ولم أتذمر، ولم أناقش، كنتُ فقط أخضع لعلاج أعلم أنه لن يفيدني، فقد كنتُ على يقين أن مرضي كان سبب خطيئتي، وأن الله يعاقبني على ما فعلتُ بكل وضوح.

ها أنا ذا، لستُ فقط أملك كلية واحدة، بل ضعيفة أيضاً، وبتّ أحتاج إلى غسيل كلوي.

لطالما خشيتُ أن أصل إلى هذه المرحلة من قبل، ولكن الآن بات كل شيء مختلفاً، كنتُ أعلم يقيناً أن الأسوأ سيحصل، لأنني أستحقه.

بدأ الجميع يفكرون بزراعة كلية لي، لماذا يطاردني هذا الأمر

مهمـا حاولـتُ الابتعـاد عنـه! لا أريـد، لا أريـد أي قطعـة غريبـة في جسدي، لا أريد أن آخذ شيئاً من أحد، لا أبالي إذا ما مـتّ، اتركـوني فحسب.

لم يستمع أحدهم إليّ، وأجريت فحوصات كـثيرة لكليهمـا، إلى أن توصـلا إلى أن العمليـة لـن تكـون ناجحـة بقـدر كـبير، أيـن نجـد متبرعاً، ولماذا يتبرع لشخص مثلي؟

لربما إذا ما كنتَ هنا لكنتَ المتبرع الوحيد، أنا فعلاً أستحق كل ما يحصل لي.

لا أريد أن آخذ كلية مقابل النقود، هذا لا يجوز، ولا تفكروا به أرجوكم.

داومتُ على الغسيل ثلاث مرات في الأسبوع، ولكـن وضـعي كـان سيئاً، فقد كـان التهـاب الكليـة كـبيراً اضـطررتُ فيـه لإجـراء عمليـة أستأصل فيها الكلية من جسدي.

لا فائدة، لقد التهب جرح العملية، رغـم أن الجميـع متعجبـون لكل ما يحصل لي، إلا أنني الوحيد الذي كان يعلـم يقينـاً أن شـيئاً لـن يساعدني على النجاة.

إنها عقوبة أستحقها، ولن أجادل في ذلك، لم أتذمر ولم أشـتك، أنا على دراية بكل ما يجري.

الفصل المئة واثنان

بقيتُ في العناية المركزة فترة أسبوعين، وبما أن الزيارة كانت قصيرة هناك، بقيتُ وحدي معظم الوقت.

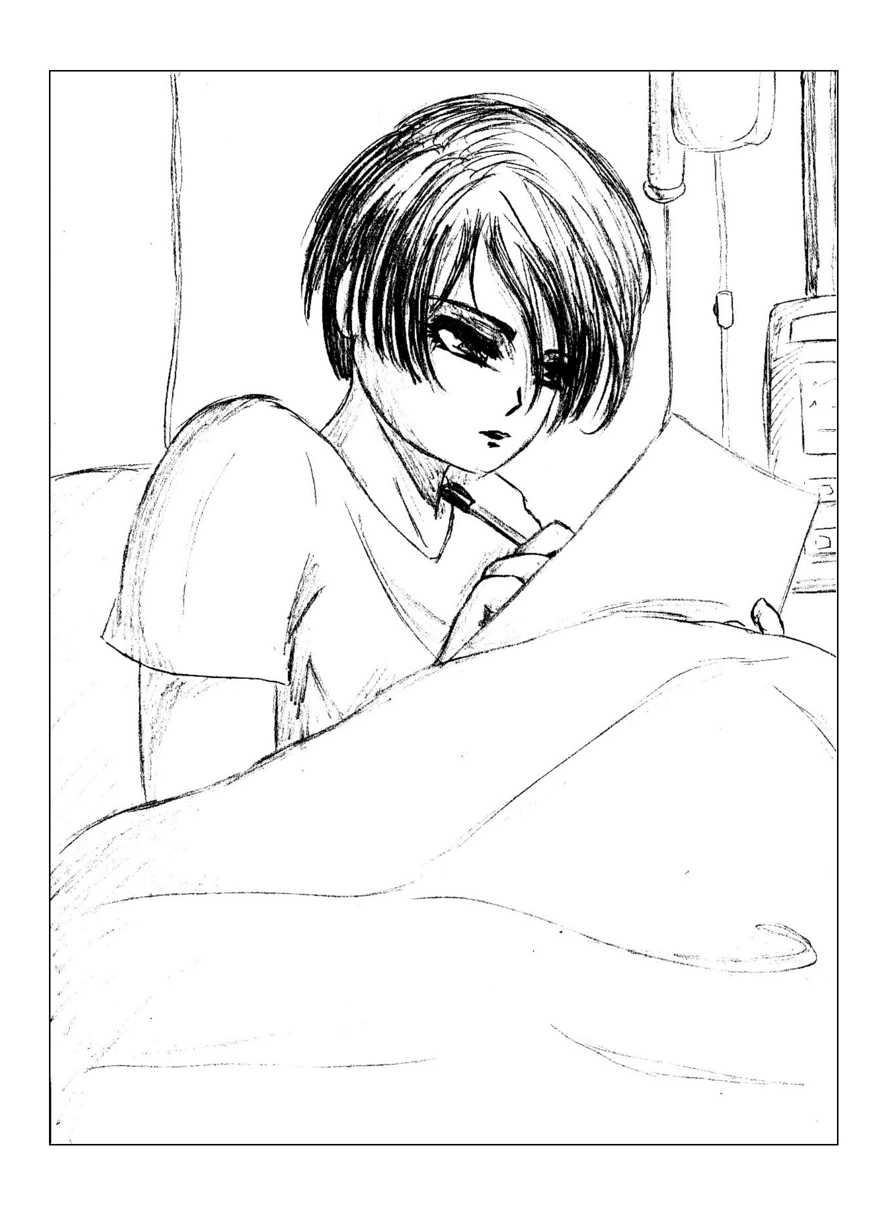
كل من يجلس حولي كان يبلغ السبعين والثمانين من العمر، كلهم في حالة سيئة، وكان في الغرفة طاقم من التمريض، يعتني كل واحد منهم بسرير.

لمحتُ أحدهم يكتب، فشعرتُ بدافع كبير في نفسي للكتابة، طلبتُ إليه أن يناولني ورقة وقلماً، وشعرتُ أنني قد وجدتُ ما أبحث عنه، أريد أن أكتب.

إلى من لن ألتقيه بعد أبداً،

أريد أن أتحدث إليك، أتلهف لأن أعتذر إليك، لربما كان القلم هو الأسلوب الوحيد، أتمنى فعلاً أن يصلك كلامي، وأن تقبل اعتذاري.

لقد عانيت من مرض شديد يدعى الخيانة، وقد دفعتُ ثمنه القليل من الآلام العضوية، والكثير من الآلام النفسية.



لا أستطيع أن أسامح نفسي، لقد خسرتُ أفضل ما أملك، وقد كانت بداية سلسلة من الخسارات التي لن تنتهي.

أه... لم أكتب منذ زمن، يؤسفني أنني أكتب رسالة ندم، ليتني جعلتك تقرأ ما كنتُ أكتب، ليتني كنتُ صريحاً أكثر، ليتني كنتُ متفهماً أكثر، ولكن ما الفائدة، لقد فات الأوان.

لقد كنتَ الأفضل، لقد كنتَ الصديق، الأخ، القريب، لقد كنتَ كل شيء، ولحقتني عندما تركتك، ولم تتخل عني أنا الذي عاهدتُ نفسي أن أثق بك.

ليتَ الزمن يعود، ليت الندم ينفع، ليتنا قادرون على معرفة المستقبل، كم نحن ضعفاء، كم نخطئ في حق أنفسنا، أين الحل؟

لقد سبق أن أخبرتني أن هناك حلاً لكل المشاكل، لقد سبق أن أخبرتني أن هناك حلاً لمشاكلي، ولكنها الآن تتضاعف، هل ما يزال هناك حل؟

إذا ما كان هناك عزاء لي، فعزائي أنك سعيد، لقد حللتَ مشكلتك، لقد فعلتَ كل ما في وسعك، لم تبدد يوماً في حياتك، لقد كنتَ وفياً، وعاينتُ في وجهك راحة وطمأنينة لم أعهدها من قبل، لقد وجدتَها في الإسلام الذي اعتنقتَ، هذا الدين الذي عاندتك فيه.

أتمنى الآن لو أنني أملك الخيار في جلسة واحدة إليك، أن

أستمع إلى ما كنتَ تريد أن تقول، وأعلم أنه الكثير، وأعلم أن فيه سعادتي ومصلحتي، ولكنني كنتُ أعمى، كنتُ عنيداً، كنتُ جاحداً.

إن جسدي يغلي، ولم تعد الأدوية تكفي، وبت أعلم يقيناً أنني لن أستمر في الحياة طويلاً، ليس هناك وقت لفعل أي شيء، لقد خسرتُ كل شيء، وانتهى كل شيء.

أتمنى أن يصلك اعتذاري الشديد عما بدر مني، آه لو أعلم وسيلة تجمعنا معاً من جديد، لكنتُ دفعت الأرض والسماء مقابلها.

الفصل المئة وثلاثة

فتحتُ عيني، فإذا بي قد استغرقتُ في نوم طويل، والورق إلى جانبي، لا أذكر أنني من وضعه هناك، ربما كان ممرضاً، أو ربما قام أحدهم بزيارتي، بل ربما نمتُ لبضعة أيام، لا أدري، ولكنني متعب، جسدي لم يعد يقوى على الحراك.

اقترب الممرض مني، وجلس إلى جانبي يقول "صباح الخير، هل تسمعني؟"

قلتُ "صباح الخير"

ابتسم وقال "أنت أفضل حالاً اليوم، حمداً لله"

نظرتُ إلى الورق وأشرتُ إليه كي أتابع الكتابة، ناولني الأوراق ثم قال "هناك شيء لك، بعثه أحدهم"

أخرج الممرض قلادتك من جيبه، لم أصدق ذلك، لم أرها منذ زمن! أمسكتُها وبدأت أبكي، ضممتها إلى صدري وبكيت بحرارة، فقال الممرض "آسف، ظننتُ أنها ذكرى جميلة"

أشرتُ بالنفي وقلتُ "إنها ذكرى جميلة، المشكلة أنها ذكرى"

فابتسم وقال "هل تعلم، غالباً ما نفسد الذكريات السعيدة بالتركيز على زوالها، لم لا نفرح بأيام كانت جميلة"

"لأنني لم أغتنم الفرصة جيداً"

"بل فعلتَ، فقد كنتَ سعيداً حينها"

"ولكنها ضاعت"

"السعادة فيها لا تضيع"

أشرتُ بالنفي وقلتُ "يصعب عليك فهم ذلك"

ولكن الممرض قال "هل تحب أن تلتقيه ثانية؟"

تعجبتُ لما يقول، فقال "صديقك، أردتَ أن تعرف الوسيلة التي تلتقي به فيها"

علمتُ أنه قرأ رسالتي، ولكن ما يقول كان مهماً جداً بالنسبة لي، قلتُ "هل هناك وسيلة؟"

أجاب "وسيلة مضمونة" ثم أخرج كتاباً من الدرج أراه لأول مرة، فيه زخرفات غريبة مميزة، فتح صفحة فيه وقرأ لي:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الحجر.

تعجبتُ مما أسمع، لم أسمع بشيء مثل هذا من قبل في حياتي، فسألتُه "ما هذا الكتاب؟"

أجاب "إنه القرآن الكريم، كلام الله، الله الذي يعبده المسلمون"

شعرتُ ببرودة تسير في عروقي، قلتُ "كل المسلمين يقرؤون هذا؟"

أجاب "أجل، هذا كتابهم المقدس، ودستور حياتهم، فيه كل شيء يحتاجون إليه"

"كل شيء!"

"ألم تجد فيه ما تحتاج؟"

شعرتُ أنني وجدتُ ضالتي، بل علمتُ أن هذا ما وجدتَ من قبلي، طلبتُ إليه أن يناولني الكتاب، فقال "بكل سرور، ولكن ساعدني أولاً على أن تغتسل، فهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون"

لم يكن لدي أي مانع، بل كان شعوراً عظيماً أن أتجهز للإمساك بكتاب، إنه فعلاً مقدس.

قام الممرض بغسل يدي ووجهي ثم قدمي، وأعطاني القرآن أتصفحه.

فتحتُ أول صفحة وقرأتُ:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ الفاتحة.

رحمن رحيم، رب العالمين، مالك يوم الدين، نعبد ونستعين، هذه صفات مميزة لا تكون إلا لإله!

فتحتُ صفحة بشكل عشوائي، فقرأتُ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ إبراهيم.

ثم تصفحتُ مرة ثانية لأقرأ:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ النساء.

علمتُ أنني أقرأ كتاباً مميزاً، بل مقدساً بالفعل، ما إن فتحتُ صفحة حتى وجدتُ فيها الكثير!

استغرقتُ في القراءة، وبات قراءة القرآن كل ما أفعل، بين دواء ودواء، بين غسيل وغسيل، كان القرآن بين يدي، لم أكن لأهدر ثانية واحدة دون القراءة.

لم أتوقف عن القراءة إلا عندما غلب عليّ النوم والتعب، نمت ممسكاً به، واستيقظت ممسكاً به، لا يزورني زائر، ولا أتحدث إلى أحد، فقط أنا والقرآن.

ربما كان وجودي في وحدة العناية يبعث على الوحدة، ولكن رفيقي الجديد جعلني أشعر أن وجودي هنا كان مهماً، وانعزالي عمن حولي كان أمراً أحتاج إليه الآن.

قرأتُ وقرأت، قرأتُ الكثير ولم أكن آبه بكل الفحوصات التي تبين أن وضعي بات يتدهور كثيراً، والالتهاب بات منتشراً جداً، ولم أعد أقوى على البقاء مستيقظاً مدة طويلة، وبات النوم يغلب علي، والحرارة باتت مرتفعة رغم كل العلاجات.

قدم الممرض إليّ، وسألني عما قرأت، فشكرته كثيراً، وأخبرته أنني أقرأ ذلك لأول مرة، وهو كتاب عظيم، فسألني عن صديقي، فأخبرته الحكاية مختصرة، وكيف أسلم وأراد لي أن أستمع إلى الإسلام فلم أفعل.

أخيراً قال لي أن الله يحب المتحابين في الله، أي الأصدقاء

الأوفياء الأخيار، وأنه يمنحهم الصحبة الأبدية في الجنة في منزلة رفيعة، وبما أن إبراهيم قد سبقني إلى الجنان، فمن الحكمة أن أصحبه.

لم أتردد في ذلك، فكنتُ على يقين أنه لم يتبق الكثير من الوقت، أخبرته فوراً أنني أريد أن أكون مسلماً، وأريد أن أكون جزءاً من هذا الدين، وأريد أن أدخل الجنان، وأن ألتقي بك لنسعد سوياً.

فرح الممرض بي كثيراً، وأطلعني على سر الجنان، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فنطقتها، وعلمني أن أصلي ركعتين من على فراشي، وشعرتُ بالكثير قد أزيل عن صدري، كل الهموم تلاشت، وكل الأحزان انتهت، لم يعد هناك سوى الله في حياتي.

طلبتُ إلى الممرض ورقة وقلماً، يجب أن أكتب، فأعطاني إياها وبدأت الكتابة.

إلى من أرجو لقاءه في عليين،

إلى أخي العزيز إبراهيم، لقد نجوتُ، لقد حللتُ مشاكلي ولم يعد لدي ما أخشى، لم أتخيل يوماً أن استقبال الموت سيكون بهذه البساطة.

إنني على يقين أنك سعيد، رغم كل ما فعلنا فإننا في النهاية أرسلناك إلى الجنان، أرجو من الله أن يجمعنا معاً، لأراك ثانية،

أعانقك ثانية، وأعتذر إليك عن جهل عشتُ فيه مدة كانت أطول منك، وأعتذر إليك أن ثقتي بك قد اهتـزت قلـيلاً في فـترة كـان علـي فعـلاً أن أصمد فيها، ولكنني الآن لا أشك أبداً، وأثق بك إلى أبعد الحدود.

إنني ألتقط آخر أنفاسي، من العجيب أن يكـون مرضـي وعـذابي هو سبب خلاصي، وأنني لم أكن لأتعلم الحقائق إن لم أحـضر إلى هنـا، إن لم أعـاين المـوت الأكيـد، فعـلاً لا يعلـم الإنـسان أيـن هـو الخـير في حياتـه، ولم أعد أعلم أيضاً إذا مـا كـان مرضـي هـو عقـاب لـي علـى مـا فعلت، أم أنـه استدراج لي بحب الله لعباده.

أنا الآن أؤمـن أن الله ابتلانـي بـالمرض ليكفـر عـني مـا فعلـتُ في الدنيا، فأصل إليه وقـد فرغـتُ مـن الـذنوب، كمـا أنـني أفهـم الآن أن أضراس المتاعب هي ذاتها أضراس الحكمة.

الحمد لله.

ﰀ

الجزء الرابع
على لسان نادية

الفصل المئة وأربعة

اعتزلتُ منزلي، وكنتُ أنظر من شرفتي إلى الحديقة، كانت الحديقة مقفرة دون أزهار وثمار، ولكن بعد ذلك اليوم، وبعد أن باتت الزاوية في الحديقة تغطي أغلى من أملك، باتت الحديقة مليئة بالثمار النضرة والأزهار الفتانة!

رغم أن المنظر كان جميلاً، وكانت أمي سعيدة ومعجبة به جداً، إلا أنني كنتُ أشعر بالذنب والندم كلما نظرتُ إليه، إنه منظر خانق، حاولتُ أن أقتلع بعض الأزهار ولكنني لم أستطع!

فتحتُ درج مكتبي، وأخرجتُ منه قلادة إبراهيم، لقد طلب إليّ أن أعطيها لآدم، ربما أستطيع فعل ذلك على الأقل.

خرجتُ من المنزل بعد عزلتي الطويلة، ولم أكن قد سمعتُ شيئاً من آدم، لم يكن هناك ما نتحدث فيه أبداً، أظن أنني لن أستطيع أن أقول شيئاً الآن، فقط أريد أن أعطيه القلادة وأغادر.



وصلتُ المنزل وطرقتُ الباب، لا مجيب!

فضلتُ أن أعود إلى المنزل في هـذه الحالـة، فلـم أكـن قـادرة علـى الاتصال بـه هاتفياً، لم يكن ذلك مناسباً على الإطلاق.

قررتُ أن أعاود الزيارة في اليوم التالي، ولكنني عندما ذهبتُ لم يكن هناك أحد في المنزل أيضاً، فبدأ الشك ينتابني، هل غادر البلاد؟

قررتُ أن أسأل الجيران، فأخبروني أن آدم في المـشفى، وأنــه في حالة خطرة في العناية المركزة، تفاجأتُ لذلك كثيراً، لابد أنني السبب في ذلك أيضاً، لابد أن صحته تدهورت بعد ذلك الحادث!

هرعتُ إلى المشفى، ووصلتُ إلى ممر لم يسمح لـي الـدخول فيـه، ربما كان ذلك أفضل من لقائه في حالة سيئة.

وجدتُ والدته تبكي على كراسي الانتظار، ووالده شارد الذهن، لم أفكر حتى بالاقتراب منهما، كل ما فعلتُه أنني طلبتُ إلى الممرض أن يوصل القلادة إلى آدم بأي وسيلة، فهي تهمه جداً.

الفصل المئة وخمسة

مضت بضعة أيام على ذلك، وعدتُ إلى المشفى لأعود آدم، ولكن كل شيء كان قد انتهى! لقد أعلنتْ وفاته، وبدأ التحضير لنقله ودفنه.

لا أصدق أنني بقيتُ وحيدة، لماذا يحدث كل هذا؟

سمعتُ بعض الحديث عن مكان الدفن، من العجيب أن أسمع أن أحدهم يجادل في دفن آدم في مقبرة للمسلمين! وكلما استمعتُ أكثر أيقنتُ أن آدم قد اتبع طريق إبراهيم، وأنهما الآن سوياً.

قرأنا الرسالة الأخيرة، ووافق والداه على دفنه إلى جانب المسلمين، واحترموا رغبته وقراره، لقد كانا أهدأ مما تصورت، لقد تقبلا الأمر بكل بساطة! لماذا لم أكن مثلهما؟ لماذا تسرعت؟

طلبتُ إلى الممرض أن يبقي القلادة في يده، فهي مهمة جداً بالنسبة له، وغادرتُ المشفى.

الفصل المئة وستة

وقفتُ في حديقة منزلي، لقد تحقق ما أراد، لقد هُزمت، لم أستطع ردعهما عما يفعلان، كما لم يقبلا التفرقة في أسوأ الظروف.

لم أعد أريد منهما شيئاً، أريد أن أنهي هذا الصراع، ماذا عساي أن أفعل؟

اليوم يوم الدفن، اتجهتُ إلى المقبرة ولم يكن هناك تجمع كبير من الناس، والداه وبعض الجيران والممرض، نظرتُ في وجه آدم الذي كان مرتاحاً وسعيداً! أنزلوه الأرض كما أنزلنا إبراهيم، وكانت القلادة في صدره، وقبل أن يغطوه بالتراب طلبتُ إليهم التوقف.

رويتُ الحكاية والجميع يحدق بي لا يصدق مايسمع، جثة إبراهيم في حديقة منزلي، وقد اعترفتُ بما فعلتُ مباشرة، ولكن رجائي كان أن ينقلوا إبراهيم إلى قبر آدم ليدفنا سوياً.

ذهب صاحب المقبرة والممرض معي إلى منزلي، وفقدتْ والدتي وعيها عندما وصلنا بالحفر إلى الجثة، التي كانت ما تزال على حالها وكأنه مات بالأمس.

قاما بنقله، ووضعاه إلى جانب آدم، وشبكا أيديهما معاً والقلادة بينهما، كما وضع والداه رسائله إلى إبراهيم معهما، وكان وجههما

مشرقاً بالسعادة، وقُرِئ القرآن عليهما، ثم دفنا معاً ليظلا مترافقين إلى الأبد.

ووضعتْ السلاسل حول يدي، وسُحبتُ إلى السجن أودعهما، وأتمنى لهما الخير والسعادة.



تم بحمد الله